الفصل الرابع: تطوّر العمران

أولاً: إشكالية البحث في التاريخ المدني المشرقي

من الملاحظ أن دراسة أي مدينة مشرقية، بقطع النظر عن خصوصيات أي مدينة كانت، يقتضي وضعها في إطار عام، أشمل، تقتضيه وحدة التركيب الإداري والسياسي والعسكري الذي كان قائماً في ظل السلطنة الإسلامية ـ العربية.

فالتنظيم الإداري والحياة السياسية كانا خاضعين لقوانين مشابهة، وعملية الترقي التي كانت تخضع لها البلاد كانت واحدة.

قد يكون من السهل حصر موضوع دراسة مدينة وكأنها وحدة قائمة بحدّ ذاتها، والتطرق إلى كل مظاهر الحياة المدنية فيها، ولكن التعمّق في ذلك يقودنا إلى الاستنتاج بأنه من الصعب فهم المظاهر الأساسية لمدينة ما ومميزات تطورها إذا لم توضع في إطار أكبر هو إطار المدن المشرقية الإسلامية ـ العربية، حيث تنظيم المساحة المدنية وإدارة المؤسسات المدنية والأزمات الغذائية والهجرة من الريف إلى المدينة تتشابه إلى حدّ كبير.

ودراسة التاريخ المدني مرهونة بمسألة المصادر التاريخية التي لا تسمح دائماً بالتعمق بهذه المواضيع التي لم يفتح بحثها إلا منذ مدة قليلة، ولأن الدراسات كانت تركز على الوصف الخارجي للحياة في المدن دون التعمق في شبكة العلاقات المعقّدة التي كانت تبنى عليها المدن الإسلامية ـ العربية في بلاد الشام.

ضمن هذا الإطار المنهجي، تقع مشكلة أساسية، ناتجة عن المصادر

الإسلامية التي تصف المدينة بطريقة جامدة statique، فتصوّر الحياة فيها، ولمئات السنين، وكأنها لا تتغيّر، كأنما هي صورة فوتوغرافية أخذت، ولمرّة واحدة، دون مراعاة التطور ولو كان بطيئاً.

ولكسر هذا الجمود، اعتمدنا المنهجية الغربية المتجددة، ناظرين إلى الموضوع من خلال أفق جديد ينطلق من مبدأ التطور، ولو كان بطيئاً وسخيفاً، علّنا نستقصي ما طرأ من نموّ في الحياة المدنية، محاولين استخراج الثابت والمتحول، في هذا الموضوع الحضاري، مستفيدين في ذلك، مما وضعه المؤلفون الحاليون عن الحياة المدنية دون أن يراعوا في ذلك معيار التطوّر.

وما نسعى إليه هو فهم تنظيم وكيفية عمل المدينة من خلال المنطق الداخلي للمدينة العربية، من خلال نظمها العائلية، وثقافتها الإجتماعية، وقواعدها الطائفية والمذهبية، وعلاقاتها بالسلطة المركزية وارتباطاتها بالأرياف المجاورة لها.

وما تنبغي ملاحظته بأن ما سنجده من استثمارات مدنية من قبل الدولة المملوكية، سواء أكان ذلك في تطوير المدينة أو في تقديم البنى العمومية لها، يقودنا إلى الاعتراف بأن الحكم المملوكي لم يكن سيئاً إلى درجة كبيرة، ولم يكن سلبياً.

والمدة الزمنية التي يدور حولها البحث هي ٢٥٠ سنة، قرنان ونصف، لا تجوز معالجتها، كما فعل المؤرخون الحاليون، الذين ينسجون على المنهجية الإسلامية المملوكية، وكأن الزمن لا يتغير. فلا جمود، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً في التاريخ المملوكي خاصة، ولا في التاريخ عامة. وبالتالي، لا يجوز مراعاة التطور في الوقائع السياسية، فقط، لأن أسلوب المصادر يحتّم علينا تقصّي تتابع الأحداث، وإهماله في الميادين الأخرى، من اجتماعية واقتصادية إلخ...

فالمؤسسات، مهما كان نوعها، تتبدّل مع الزمن. ولهذا، فالمصادر والمراجع تعطي وصفاً دقيقاً عن هذه المؤسسات، ولكنه كاذب ولا يصلح إلا

لزمن صدور هذه المصادر والمراجع، كما أن هذه تصوّر الحقيقة كما ينبغي أن تكون لا كما هي في الواقع، كما هو شأن كتب الفقه عادة.

ومن هنا حرصنا على دراسة التطور المدني في طرابلس، ضمن إطار حقبات لا تتجاوز الخمسين سنة لمعرفة صيرورة هذه المدينة، وكيفية تطورها بشكل واضح ودقيق ومنهجي.

ودراسة النموّ المدني والحقل الإجتماعي ـ الثقافي للمدينة العربية موضوع جديد من المواضيع التي تنصب عليها الدراسة الإجتماعية منذ عشرين سنة، وإذا لم تكن الحياة المدنية ظاهرة جديدة في التاريخ، فدراستها مسألة جديدة، تطمح إلى تجاوز الوصف الخارجي والولوج إلى الداخل الحقيقي وتحليل ديناميته. فهذه المدينة المنغلقة على نفسها تشارك في المثال الوحدوي الإسلامي، وهي إسقاط لرؤية إنسان عائش في مجتمع على حقل مستصلح[١].

كان الاعتقاد سائداً عند أكثرية المستشرقين، المتأثرين بالأنموذج الروماني للمدينة، وعلى رأسهم «سوفاجيه» بأن المدينة العربية لم تعط إلا أنموذجاً عن الفوضى واللاانتظام. فيردّ على ذلك د. شفاليه بأنه يوجد تنظيم مدني جدّي في البلاد العربية فرضه تركيب الجسم الإجتماعي وحياته. فجاء تركيب المدينة منطوياً على ذاته، متلاصقاً متراتباً على شاكلة التركيب العائلي العربي[٢]. وصورة هذا في تصميم السكن: بيوت منطوية على ذاتها، مفتوحة على الباحة المركزية وقد أعدت لعزل العائلة أو الحريم مع السماح باستقبال الأقارب أو الغريب. وهذا المفهوم لاحتلال الأرض يوجد في الأبنية التي لها دور فاعل ثقافياً وفي تجمّع أبنية الأحياء[٣].

المدينة إذاً، في البلاد العربية، تمثّل إسقاطاً للتركيب الإجتماعي العائلي، على مساحة محددة. وهذه الوضعية تملي على الباحث أن يأخذ بعين الاعتبار:

١ ـ كون التصميم المدني يكرّر التماسك الداخلي للمجتمع، حيث أن الجماعات العائلية، تنتظم في علاقات القربى، مما يؤدي إلى انطواء وفواصل في البيوت والأحياء وكل عناصر الشبكة المدنية.

٢ ـ وجود فسحة مؤتمرة بالإسلام في الجامع حيث يجري تجاوز الفواصل بين الجماعات والأشكال المدنية المرسومة على صورتها، فالإسلام بقانونه الإيماني يدعو للوحدة ويرفع إلى العلو الانطوائية الإجتماعية.

٣ ـ القسمة المصنعة للوظائف الإقتصادية، سوق، خان، فندق، التي تفتح المدينة على التبادل الخارجي.

ويضاف إلى ذلك القلعة، فسحة السلطة والواسطة بين المجتمع والسلطة حسب مبادىء علاقات الزبونية والتراتبية[٤].

العرب المسيحيون لهم نفس نموذج السكن. وهذه الثقافة الإجتماعية تستمد قوتها من نظام العلاقات الإنسانية الأساسية[٥].

وبرأي «شفاليه» هناك مدينة عربية واحدة، حتى ولو كان الأسلوب متغيراً من مدينة إلى أخرى، أو من زمن إلى آخر، لأن كل مدينة عربية مكوّنة من نفس أنماط الفسح المغلقة التي تتكرر فيها والتي تنتظم دائماً تبعاً للمبادىء نفسها[٦].

وسؤال آخر لا بدّ منه: هل المدينة العربية متماسكة أم متقطّعة؟ وهل من مدينة بالقياس على المدن الأوروبية؟ والبعض يعتقد بأن ما يسمى بمدينة عربية هو تجميع لخلايا عائلية وقروية وطائفية منعزلة عن بعضها البعض لها تماسكها العائلي ووحدتها الإقتصادية والإدارية وممثلوها ورؤساؤها، بحيث تبدو المدينة مقسومة إلى أحياء شبيهة بقرى ومجموعها يشكّل مدينة[٧].

هذا الإنعزال والتلاصق لجماعات قريبة من بعضها ومتراتبة، حقيقة فيزيائية وطوبوغرافية واجتماعية في المدينة العربية، ولكنها لا تحجب وجود المدينة ولا تحجب التنظيم الإنساني الطامح إلى الوحدة[٨]، إنطلاقاً من مفهوم وحدة الأمة الإسلامية، برغم تضادّ واقع التركيب الإجتماعي القبلي مع هذا المفهوم النظري. والنتائج السياسية لهذا التفسخ في النسيج المدني يظهر في انعدام المؤسسات البلدية والهيئات التمثيلية وفي التشاور بين السلطة والشعب وانهيار السلطة الإدارية، مع صعوبة إيجاد استقلالية للتنظيمات البلدية كما في الحضارة

الغربية مع قيام الولاء عند الناس للجماعة العائلية والدينية والأثنية المنسجمة مع الحي[٩].

ومع هذا، لا يجوز أن ننكر الحياة الداخلية للمدينة الإسلامية ـ العربية والتركيز فقط على الفتن ورفض السلطة الشرعية[١٠].

ولدراسة مسألة العمران في نيابة طرابلس، لا بدّ من الرجوع إلى المراجع التي قامت بمسح للأبنية العامة، وفي إطار طرابلس نجد هذا المسح في:

- كتاب سوبرنهايم، الذي قام بأول عملية مسح شبه كاملة للكتابات العربية المنقوشة في إطار طرابلس ونيابتها، وللأبنية العامة التي دوّنت عليها هذه النقوش (مساجد، مدارس، إلخ...). وقد جاء هذا العمل العظيم في مطلع هذا القرن.

ثانياً: تطوّر العمران في مدينة طرابلس (الأبنية العامة)

كانت مدينة طرابلس المملوكية، ثالثة مدن ما يعرف اليوم بدولتي لبنان وسوريا، بعد حلب ودمشق.

وهي، كما تصرّ على ذلك المصادر العربية ـ الإسلامية وتذهب مذهبها المراجع الإسلامية المعاصرة[١١]، مدينة مستحدثة[١٢]، عمرها من عمر الفتح المملوكي بعد طرد الصليبيين منها.

ولا شك، إذا كان الإستحداث ينطبق على هوية السكان، التي يصعب تحديدها انطلاقاً من الوثائق، فهو لا ينطبق، «مئة بالمئة»، على المدينة التي نجد، كما ستدلّ على ذلك الشواهد التي ستأتي تباعاً، في دراستنا لتطوّر العمران، أن المماليك رمّموا عدداً لا يستهان به من أبنيتها التي حوّلت إلى مساجد أو فنادق أو حتى منازل[١٣].

وتذكر المصادر الإسلامية أن المدينة «المستحدثة» قد بنيت على بعد ميلين من البحر[١٤]، وفي مصادر أخرى على بعد خمسة أميال[١٥]، وهو رقم مبالغ فيه. وقد بدأ العمل في ورشة البناء، بعيد إعلانها عاصمة لنيابة طرابلس في عام ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م.

ولعل بناء المدينة، بعيداً عن البحر، كان لمحو ذكرى كونها إحدى العواصم المسيحية الكبرى على عهد الصليبيين[١٦] وحتى القرن العشرين كان يفصل بين المدينة والمرفأ حقول وبساتين.

ولما كانت المدينة خربة، كان نائب السلطنة في حصن الأكراد مكلّفاً بصورة استطرادية بإدارة طرابلس، وكان مركز سكنه في الحصن المذكور، ويمارس سلطته على طرابلس بواسطة فرقة عسكرية «يزك» إلى المدينة. وشيئاً فشيئاً، بنيت المدينة، بإنشاء الجوامع والأسواق والحمامات؛ وتعطي النقوش

وبعض كتب المصادر الإسلامية العربية فكرة عن تطور المدينة. وقد أدار بلبان الطباخي الذي كان أول من سكن طرابلس كنائب للسلطنة وبقي فيها حتى عام ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م، إعمار المدينة، ولكن ليس لدينا تفاصيل عن نشاطه. وقد دشن الجامع الكبير على عهد السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) خلال نيابة عز الدين أيبك الخازندار. وبنى خليفته عز الدين أيبك الموصلي حماماً، ضريحاً وجامعاً خربا اليوم. وعرفت المدينة وثبة عمرانية مع نائب السلطنة اسندمر الذي رمّم القلعة وبنى حماماً وسوقاً وجرّ قنوات الماء إلى المنازل في طبقاتها العليا، مما جعل المدينة بمنأى عن وباء الحمى. وبرغم أعماله المهمة، كوفىء بنقله من المدينة إلى مدينة حماه، ولم يعد إلى طرابلس ثانية، برغم محاولة إقناعه بذلك.

وبعد أربعين سنة وصلت طرابلس إلى درجة عالية من الازدهار. ومنذ عام ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م أضحت طرابلس مركزاً لثالث نيابة من حيث درجة الأهمية في الممالك الشامية[١٧].

أ ـ الموقع الجغرافي

لربما، لا حاجة لنا، إلى تحديد موقع طرابلس الجغرافي، انطلاقاً من معلوماتنا الحالية، طالما أن المصادر المعاصرة لإعادة أحيائها تصف ذلك بوضوح. ويقول حول ذلك العمري، المتوفى في عام ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م، ما يلي:

«لما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة، ذميمة المسكن، فلما طالت مدة سكنها، وكثر بها الناس والدواب، وصرفت المياه الأجنة (الأسنة) التي كانت حولها فقايع، وعملت بساتين، ونصب بها المنصوب والغراس، فخفّ ثقلها، وقلّ وخمها. وقد كان بها «اسندمر الكرجي» نايباً، وبقي لا يستقل من لوثة وخم، فشكا إلى الحكيم الفاضل ابن الدين سليمان بن داود المتطبب وخامتها، وسأله عما يخفف بعض ذلك، فأشار عليه أن يستكثر بها من الجمال

وبقية الدواب، ففعل ذلك، وأمر به الأمراء والجند، فخفّ ما بها، وكان الأمر كما أشار به الحكيم. . .

وبها نهر يحكم على ديارها وطبقاتها، يتخرّق الماء في مواضع من أعالي بيوتها التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العلية، وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء، خفيفة الماء ذوات أشجار وكروم ومروج وأغنام ومعز، ومجتمع بها الجوز واللوز وقصب السكر والبلح، ويعمل بها السكر، ويهدى إليها وفود البحر، وترسي بها مراكبهم، موضع زرع وضرع، وهي الآن مدينة ممتدة (متمدنة) كثيرة الزمام، ذات مارستانين ومساجد ومدارس وزوايا وأسوار جليلة وحمامات حسان موصوفة، وجميع أبنيتها بالحجر والكلس، مبيضاً ظاهراً وباطناً، تحيط بها غوطتها، ويحيط بغوطتها مواضع مزروعاتها، بديعة المشرف، تحسن بعين من يشرف من هضبة عليها. . .»[١٨].

أما شيخ الربوة، المتوفى قبل العمرى بعشرين سنة في ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧ م، فيذكر أنها:

«بنيت في سفح ذيل من أذيال جبل لبنان بكورة من أكوار طرابلس، بعدها عن طرابلس القديمة المخروبة نحو من خمسة أميال. على شاطىء نهر يجري إلى البحر، وهي سهلية جبلية، بحرية برية، يتخلل الماء في جوانبها، ولها قنطرة على واد بين جبلين، يمرّ عليها الماء من منبعه إليها في ارتفاع نحو من مايتي ذراع، والنهر يجري من تحتها إلى سقي الأراضي، ويصبّ في البحر الرومي. . .»[١٩].

ويذكر إبن بطوطة الذي زارها في عام ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م، على أنها إحدى بلدان الشام الضخام، وتقع على ميلين من البحر، وقد سبق واستشهدنا بذلك.

أما القلقشندي[٢٠] فيقول بأنها مدينة من سواحل حمص، طولها تسع وخمسون درجة وأربعون دقيقة، وعرضها أربع وثلاثون درجة. خربت عندما

فتحها المسلمون عام ٦٨٨ هـ في أيام قلاوون ثم عمّروا بديلاً عنها مدينة على نحو ميل (راجع النص في باب الإدارة).

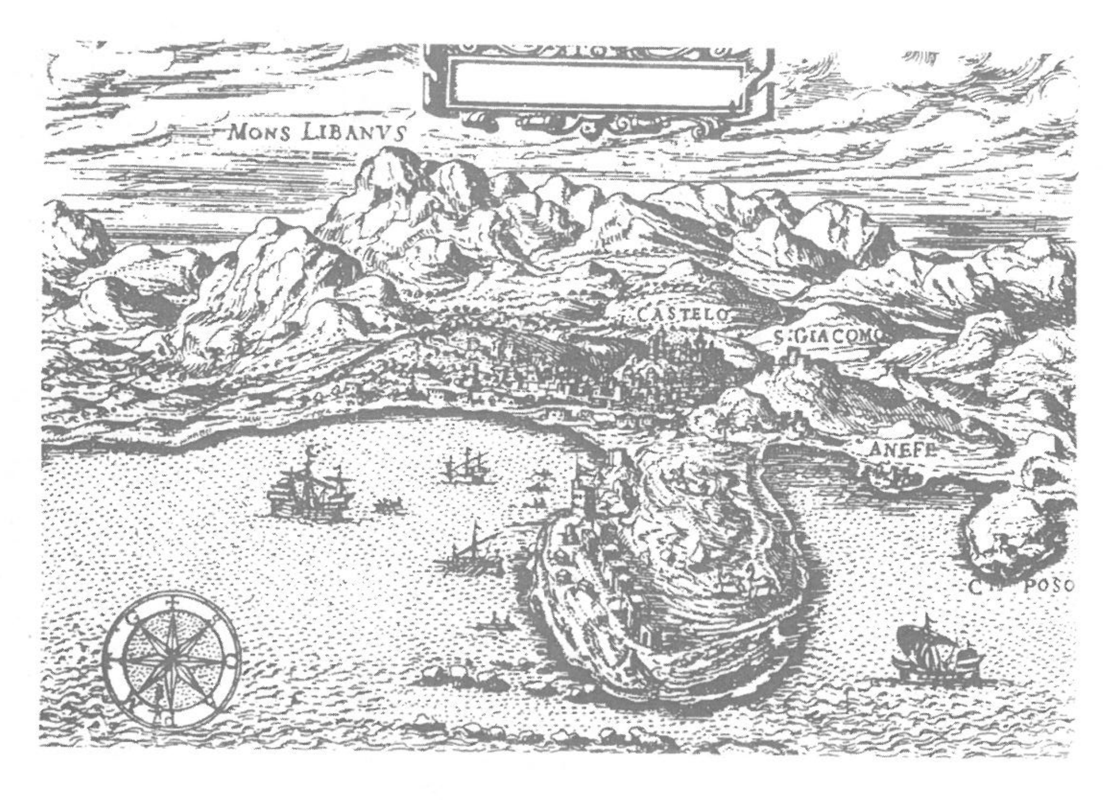
ويذكر ابن تغرى بردى «أن طرابلس القديمة» كانت من أحسن المدن وأطيبها، ثم بعد ذلك اتخذوا مكاناً على ميل من البلدة وبنوه مدينة صغيرة بلا سور فجاء مكاناً رديء الهوى والمزاج من الوخم[٢١]

ولقد ساهم اختيار طرابلس، عاصمة للنيابة التي تحمل اسمها في تطوّرها السريع على صعيد العمران في الأبنية العامة والمساكن وفي مؤسسات الخدمات الحياتية. وهذا ما جعلها، ما عدا بعلبك إلى حدّ ما، متمايزة عن كل المدن اللبنانية الأخرى الحالية، التي كانت وقتذاك مجرد قرى فقيرة وبسيطة، تنطق آثارها الخربة بمجدها السالف في التاريخ القديم وعلى زمن الصليبيين.

الرأي الشائع هو أن طرابلس القديمة كانت في الميناء، وبعد أن هدمها المماليك عمدوا إلى بناء مدينة جديدة على ضفة نهر أبي علي، وان كان يوجد في المكان أبنية صليبية استخدموها وحوّلوها إلى غاياتهم المتنوعة من عسكرية ودينية واقتصادية. كما أنهم استخدموا الحجارة المنحوتة التي كانت قائمة في المكان من بقايا الأبنية المتهدمة. ويعطي دليلاً على ذلك الدكتور تدمري، في الأعمدة الرومانية والصليبية الموجودة في أبنية طرابلس القديمة[٢٢].

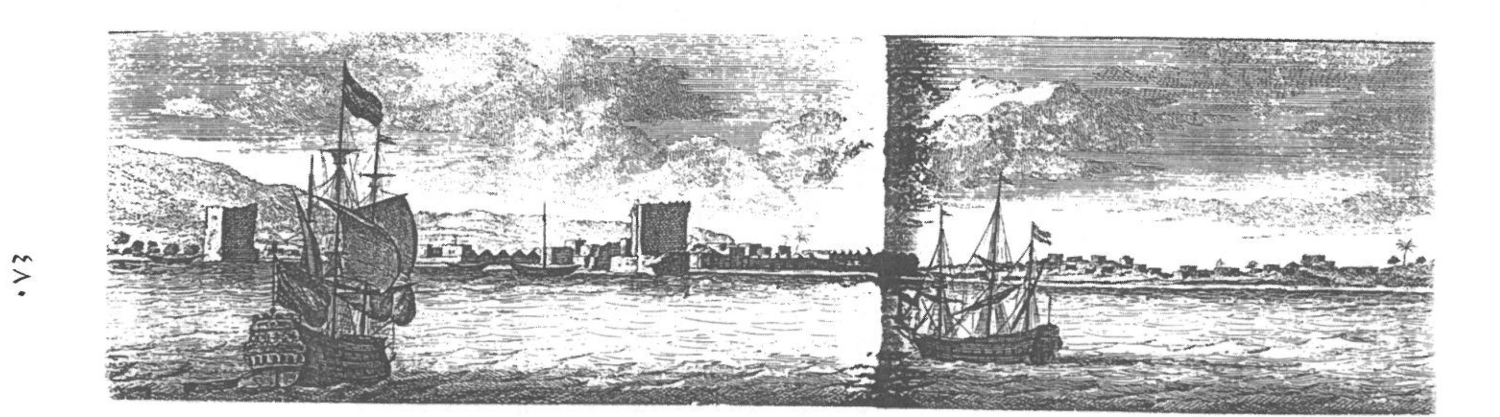
ولما كانت طرابلس لا تصلح مناخياً للسكن ولا حتى صحيا، اعتمد الحكام إجراءات لحل ذلك، وردت في نصّ العمري، المذكور أعلاه، وكانت ناجحة وساهمت في انطلاق طرابلس عمرانياً، وبصورة سريعة.

وبرأي المستشرق «لابيدوس»، تمّت إعادة بناء طرابلس بناء كلياً على البرّ لتقوم بدور المدافع عن المدينة، وبوجود المساجد التي بنيت فيها، أصبحت طرابلس مركزاً هاماً لإرساء قواعد الاستقرار وإخماد حركات الطوائف «الهرطقية» في لبنان. وقد تمّ بناؤها بعد تدمير للمدن السورية الساحلية، لوضع سوريا في عزلة تجعلها في منأى عن رجوع الصليبيين[٢٣].



طرابلس كما رسمت في رحلة «زولاردو» في عام ١٥٩٥ م.

1 IL Devotissimo viggio di gierusalemme, Rome, 1595, p. 285.



طرابلس كما بدت في رحلة «كورناي لوبران» المنشورة عام ١٧١٤ م، اللوحة ١٥١.

(N. JIDEJIAN, Tripoli, p. 110)

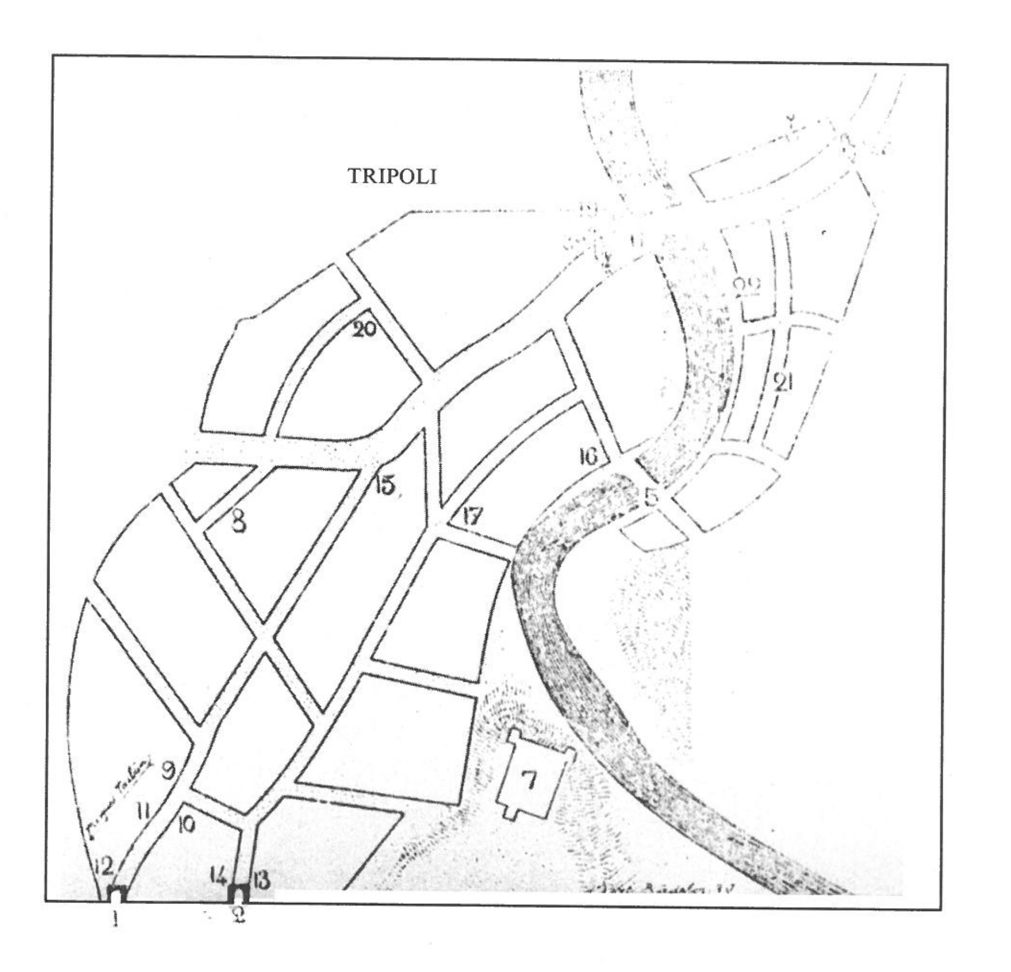


Fig. 5. - Plan de tripoli

1 - Bâb Bairût.
2 - Bâb al - aḥmar.
3 - Bâb al - Dabbâgha.
4 - Bâb al - Maslakh.
5 - Djisr al - 'atiq.
6 - Djisr al - djadîd.
7 - Citatadelle.
8 - Djâmi' al - kabîr.
9 - Madrasa Khairîya Ḥasan.
10 - Madrasa al - Khâtûnîya.
11 - Djâmi' al - Saqraqiya.
12 - Djâmi' Arghûn Shâh.
13 - Djâmi' al - Mu'allaq.
14 - Fontaine' Ain al - Tîna.
15 - Djâmi' al - 'Attâr.
16 - Djâmi' al - Burṭâsî.
17 - Mausolée d'Aibek al-Manṣilî
18 - Djâmi' al - Tôba.
19 - Masjid al - Dabbâgbîn.
20 - Madrasa al - Rifâ'îya
21 - Madrasa al - Zuraiqîya
22 - Madrasa Shaikh al Waṭṭâr
23 - Bab al - Asâkifa

بعض المواقع العمرانية في طرابلس (نقلاً عن سوبرنهايم)

ب ـ العمران أو خطط نيابة طرابلس منذ مطلع العهد المملوكي حتى نهاية القرن الثالث عشر

كانت بداية العمران في الأبنية العامة، مع استقرار «سيف الدين بلبان الطباخي» (٦٨٩ ـ ٦٩١ هـ/ ١٢٩٠ ـ ١٢٩١ م) أول نائب على نيابة طرابلس المملوكية في المدينة مع جيشه.

١ ـ المساجد:

أ ـ الجامع المنصوري:

ويقال بأن أول أعمال «الطباخي» العمرانية كانت وضع حجر الأساس للجامع المنصوري الكبير فوق إنقاض كنيسة «ماري دولاتور» الصليبية أو كاتدرائية «سان جان» في رواية أخرى. وبذلك يكون الجامع المنصوري أول مساجد طرابلس قد تمّ بناؤه في عام ١٢٩٤ م، بأمر من السلطان الأشرف خليل زمن نيابة عز الدين أيبك الخزندار (١٢٩٢ ـ ١٢٩٥ م)، نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل. ثم بنيت أروقته في عام ١٣١٥ م، بأمر من السلطان محمد بن قلاوون[٢٤]. ولا غرو أنّ في هذا القول مغالاة، ولربما ما تقصده إحدى الدراسات بحجر الأساس في البناء، هو حجر أساس عملية ترميم أو إعادة تأهيل للكنيسة القديمة، أو عملية طمس لمعالم الكنيسة، وهي عملية كثيراً ما لحقت بالمعابد النصرانية، من الشرق إلى تركيا فأوروبا الشرقية لاحقاً مع العثمانيين. ومظهر الجامع من جهة، وتصميمه الصليبي كما يؤكد ذلك سوبرنهايم[٢٥]، خير شاهد على عملية التحويل هذه. ولا يمكن الركون، إلى نقش موجود على أحد حيطان المسجد للدلالة على أن البناء مملوكي، فما الذي يمنع من أن تكون البلاطة قد أضيفت إلى موقعها.

وتذكر إحدى الدراسات أن الجامع كان كنيسة على اسم القديس يوحنا، ونجد رسوماً وتزييناً على الحجر مختبئاً. وهناك شبه أكيد بينه وبين فنّ البناء في

دير البلمند ويظهر ذلك في الحيطان التي هي بشكل أبراج وفي النوافذ والأقبية(٢٦).

فالجامع كان كنيسة صليبية حوّلها قلاوون إلى جامع، وحوّل الأشرف خليل بوابتها الغوطية الجميلة إلى بوابة على الطراز العربي، وأضاف محمد بن قلاوون إلى هذه الكنيسة المحوّلة جامعاً قناطر الباحة والمنبر(٢٧).

٢ ـ مسجد أيبك:

وإضافة إلى هذا المسجد، يذكر بدر الدين الحلبي، أنّ عز الدين أيبك أنشأ بطرابلس «المسجد والبيمارستان المعروفين به...»(٢٨)، كما أنشأ تربة له في عام ١٢٩٨ م(٢٩).

٢ ـ المدارس:

وفي عام ١٢٩٧ م بنى نائب طرابلس «عز الدين أيبك الموصلي» (٦٩٤ ـ ٦٩٨ هـ// ١٢٩٤ ـ ١٢٩٨ م) المدرسة «الزريقية»، وكان موقعها على الضفة الشرقية اليمنى لنهر أبي علي، وهي أقدم مدارس طرابلس المملوكية وغير قائمة حالياً(٣٠).

٣ ـ حمامات:

وبنى عز الدين المذكور أعلاه الحمام المعروف باسمه، الملاصق لخان الخياطين، وعليه كتابة لاتينية، وإلى جانبه ضريحه(٣١).

ولعلّ هذه الكتابة متأتية من كون أحد البنّائين قد اعتمد في البناء حجراً عليه نقش، أو أن الحمام كان بناءً صليبياً في الأساس.

٤ ـ البيمارستان:

وإلى عزّ الدين المذكور يعود الفضل ببناء البيمارستان المعروف باسمه(٣٢).

وينسب أبو الفداء إلى الأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر، أحد الأمراء بحلب، بناء بيمارستان في طرابلس(٣٣).

٥ ـ برك:

وفي حوالى سنة ١٢٩٧ م انشئت بركة الملاحة، ولعلّها بركة الموصلّي، ويقوم قربها «حانوت الشهود» الذي يجلس فيه شهود العدل، وكانت تملأ عصيراً (ليمون، خروب أو سوس) لثلاثة أيام في ذكرى مولد النبي محمد، فيشرب منها الأهالي مجاناً ليلاً نهاراً(٣٤).

إذاً، قبل أن ينتهي القرن الثالث عشر الميلادي، كانت طرابلس قد بدأت بتركيز بعض مؤسساتها العامة التي ستتكاثر في النصف الأول من القرن الرابع عشر.

٦ ـ أسباب هذا العمران.

هذه المؤسسات العمرانية كانت جامعين، أحدهما الجامع الأساس والرئيس في المدينة، ومدرسة وحمام وبيمارستان وبركة.

لماذا اقتصر البناء على هذا العدد القليل؟ الجواب على ذلك بسيط، فالمدينة كانت لا تزال مأهولة بعدد قليل من الناس. فالمعروف أن طلائع الوافدين إلى المدينة جيش من ستماية عنصر، نزل إلى طرابلس من حصن الأكراد، وطبعاً معه بعض العائلات المقيمة في الجوار، وعدد الجند مؤشر على أن الحاجة إلى هذا العدد الضئيل من الجند كان مرتبطاً بعدم وجود كثافة سكانية، في أول العودة إليها، وبأن عدد الجند يكفي للمحافظة عليها والصمود في وجه احتمالات أي إنزال صليبي محتمل.

بناء الجامع الكبير جاء نتيجة منطق بناء المدينة الإسلامية الذي تكلّمنا عليه في مطلع هذا الفصل، فنقطة الانطلاق في بناء المدينة أو إعادة تأهيلها تبدأ من الجامع، الذي يشكّل نقطة الصفر في عملية هذا البناء.

ولما كان عدد السكان قليلاً، ومقتصراً على الجند وعلى من انضمّ إليهم، من أعداد قليلة من السكان المحليين، لأن الظروف النفسية، بعد تهجير الصليبيين، لا تجعل الناس متحمسين للانطلاق في عملية الهجرة إلى المدينة

بصورة سريعة، كان بناء جامع واحد أضيف إليه جامع آخر، منسجماً مع عدد السكان، يؤكد ذلك أن إمكانية استيعاب الجامع الكبير للمؤمنين الذين يؤمونه للصلاة يتجانس مع ما نتصوره عن عدد السكان في مطلع الحكم المملوكي.

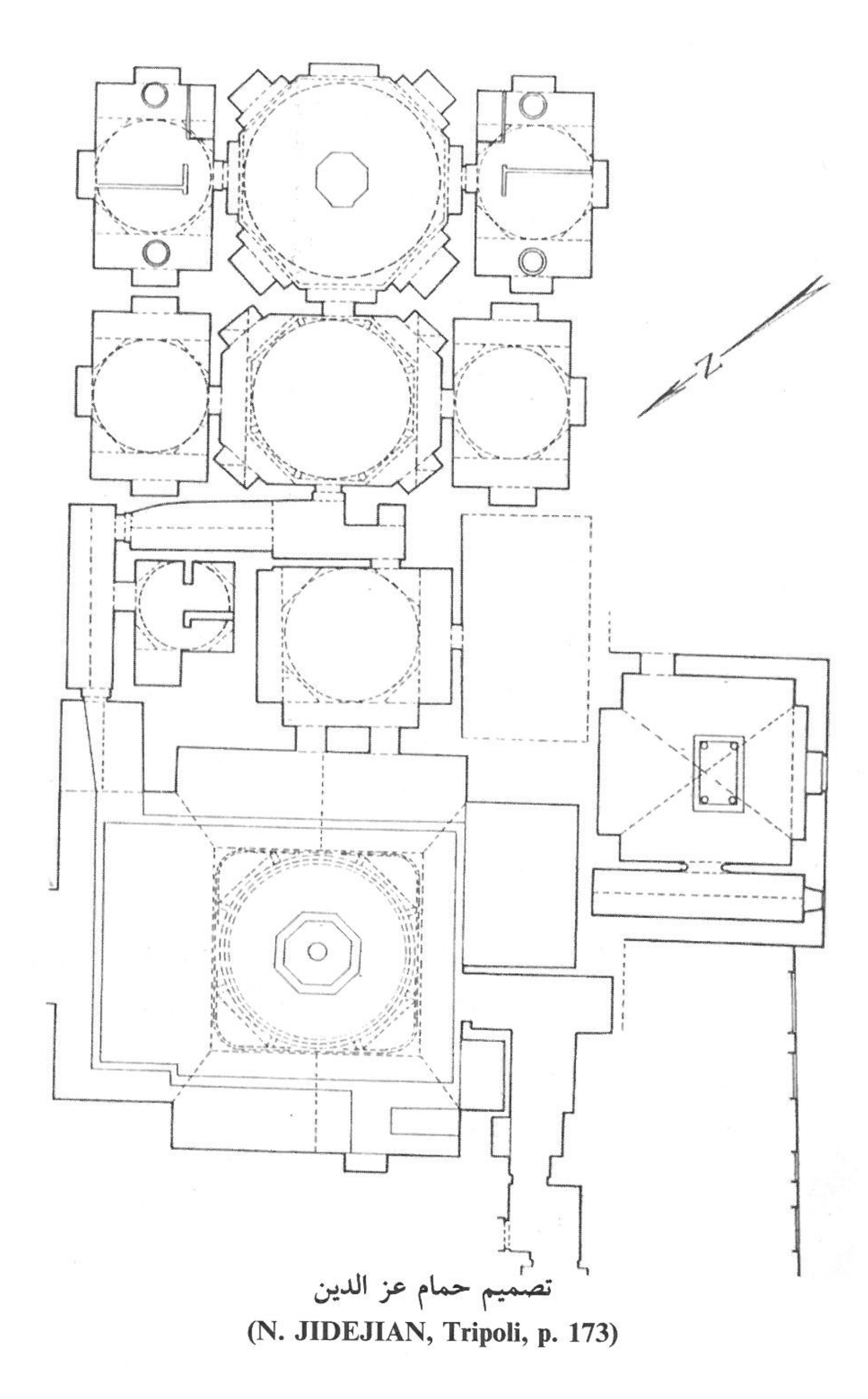
ولما كانت طرابلس، في مطلع العهد المملوكي، تبدو كمركز طليعي للصمود أمام الفرنجة، المحتملة عودتهم إلى شواطىء المشرق، كانت المدينة أقرب ما تكون إلى سكن عسكري. وهذا ما اقتضى إيجاد البيمارستان في مطلع عودة طرابلس إلى الحياة مجدّداً لتأمين الخدمة الصحية، في نظرنا، لا للسكان بل للجند القاطنين في المدينة.

وكما كانت الخدمة الصحية حاجة ماسة، كان الحمام حاجة أخرى ضرورية جداً، وكذلك المدرسة.

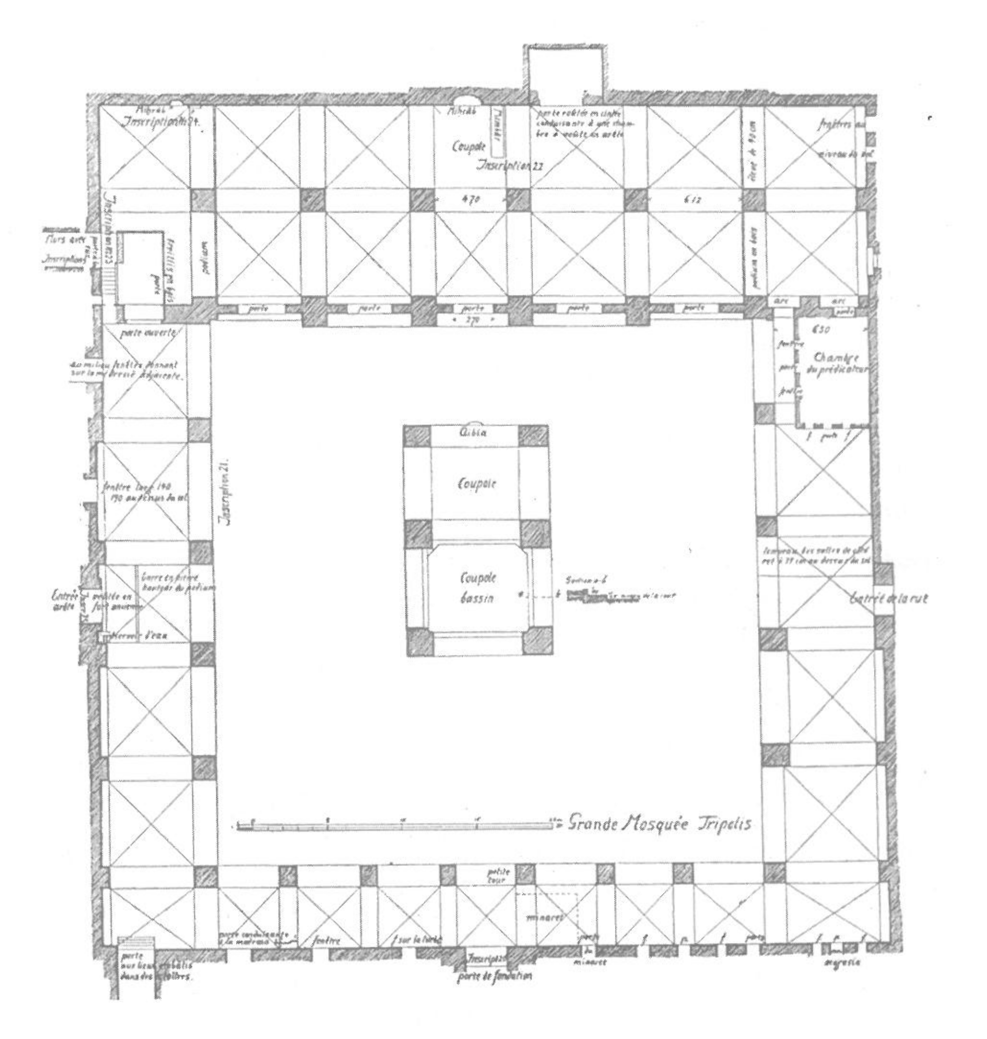
ومن هنا، يمكن القول، إن وجود نموذج واحد من الأبنية المذكورة أعلاه ينسجم مع احتياجات المدينة بالقياس على عدد السكان. فأية عملية بناء تقتضي، في بنيتها التحتية، وجود المسجد، والمستشفى والحمام ومياه الشرب. وهذا ما أمنته طرابلس لساكنيها في مطلع العهد المملوكي.

وما لا نعرفه عن طرابلس في هذه الفترة، هو النهضة السكنية.

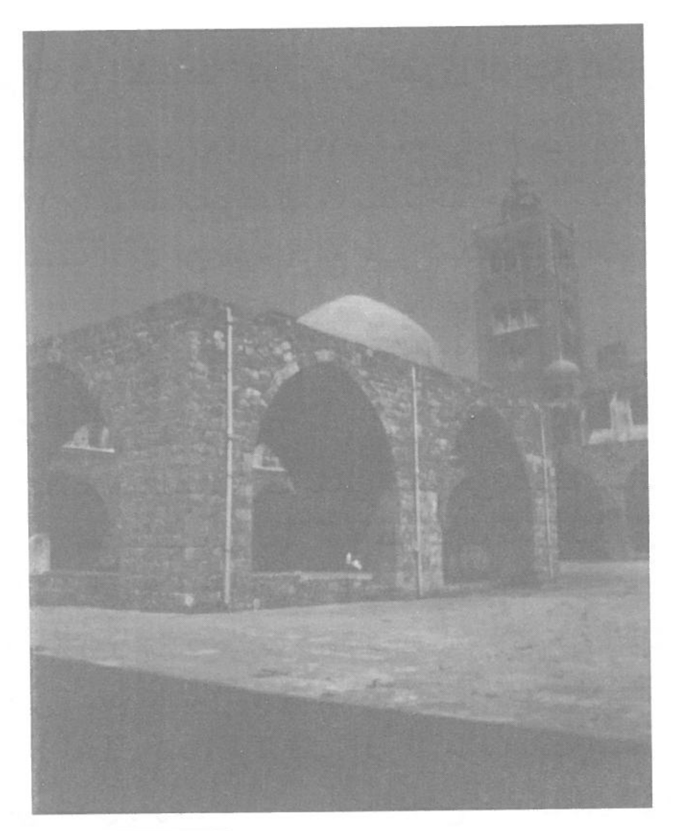
هذا الحال لن يدوم كذلك، فالهاجس النفسي من احتمالات عودة الصليبيين سيخفّ، والدولة المملوكية ستثبت أرجلها، فبدأ عدد السكان يتكاثر، لربما، في طرابلس، فقاد ذلك إلى تحوّل عمراني كبير في القرن الرابع عشر.

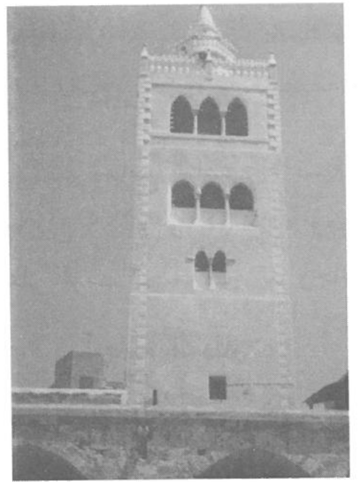


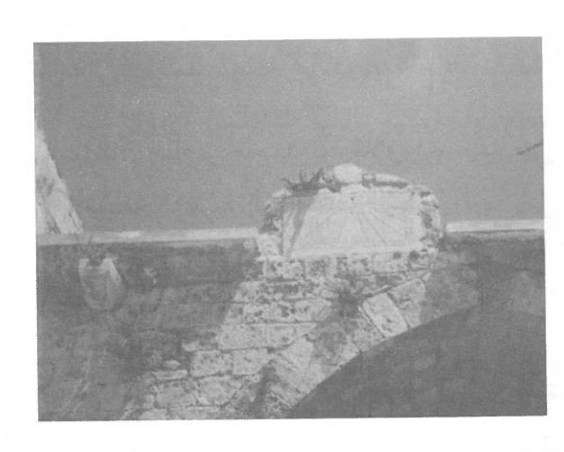
تصميم حمام عز الدين
(N. JIDEJIAN, Tripoli, p. 173)



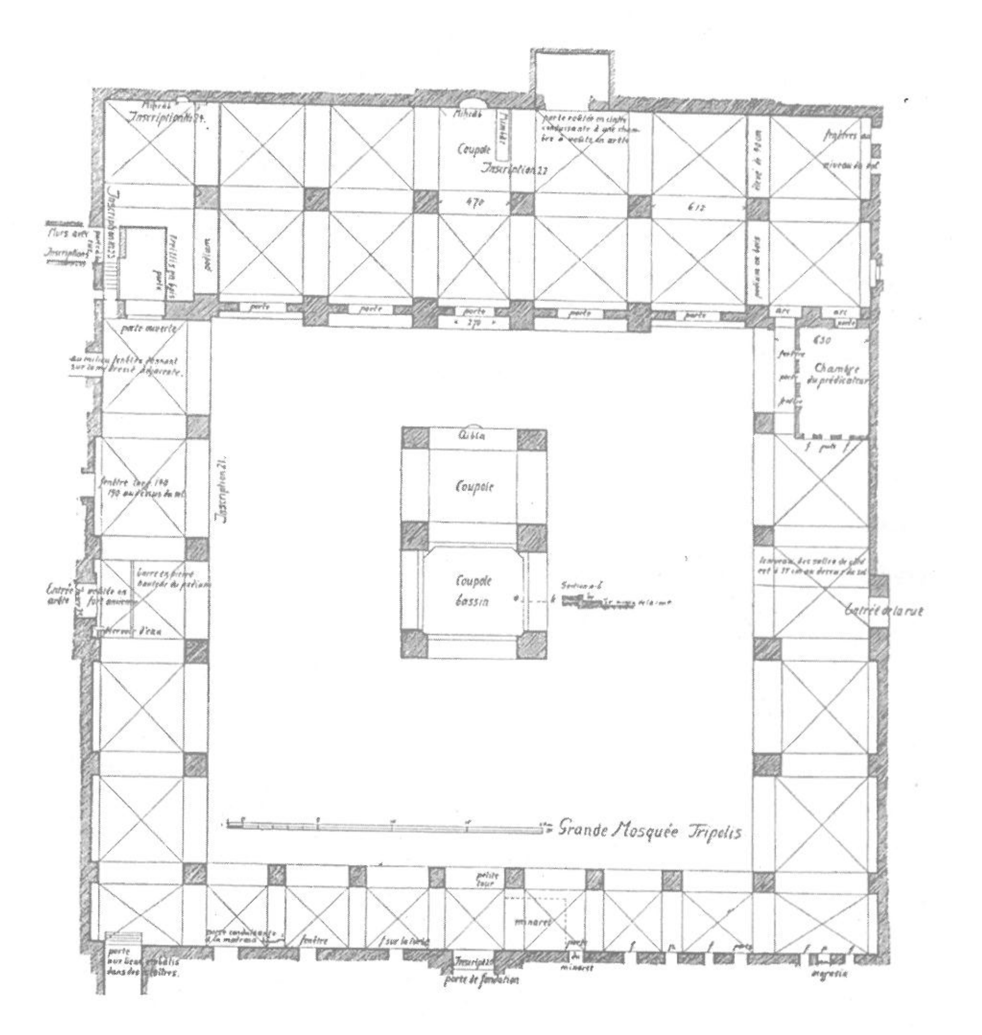
تصميم جامع طرابلس الكبير (نقلاً عن سوبرنهايم)



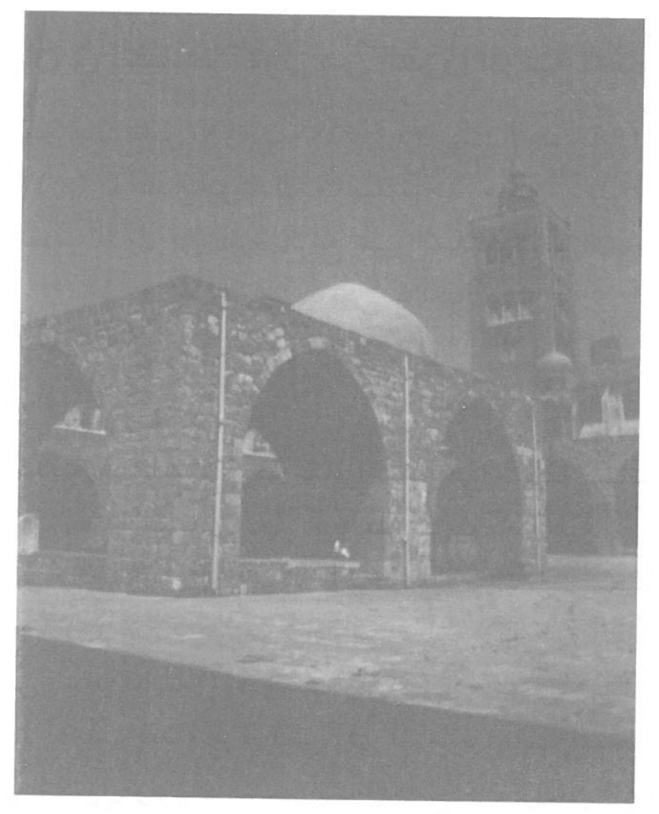


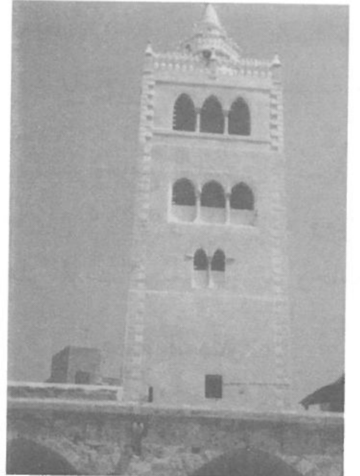


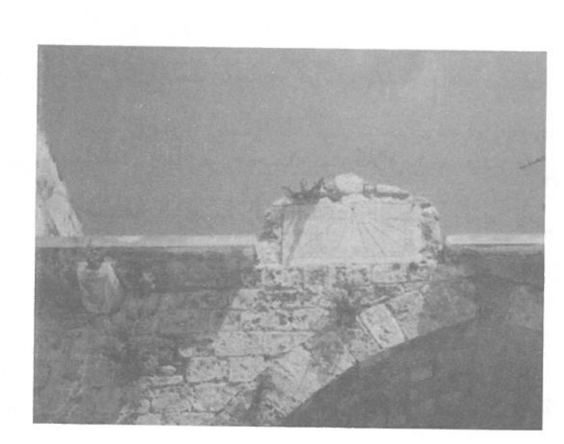
الجامع المنصوري الكبير مع مئذنته وساعته الشمسية



تصميم جامع طرابلس الكبير (نقلاً عن سوبرنهايم)







الجامع المنصوري الكبير مع مئذنته وساعته الشمسية

ج ـ العمران في النصف الأول من القرن الرابع عشر

في ولاية اسندمر (٦٩٨ ـ ٦٩٩، ٧٠٠ ـ ٧٠٩ هـ/ ١٢٩٨ ـ ١٢٩٩، ١٣٠٠ ـ ١٣٠٩ م) بدأت الحركة العمرانية تأخذ حجماً كبيراً. ومن الآثار المتبقية من النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي نجد الآتي:

١ ـ الجوامع:

ـ جامع طينال:

بظاهر مدينة طرابلس، قرب مقابر الرمل في منطقة بساتين طرابلس العقارية، على الضفة اليسرى لنهر أبي علي قرب باب طيلان. وهو أجمل جوامع طرابلس وأفخمها. بناه نائب السلطنة الأمير سيف الدين طينال الحاجب سنة ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٦ م بعد عشر سنوات من تسلّمه لأول مرة النيابة، في ٧٢٦ هـ على أنقاض كنيسة قديمة[٣٥]، حسب رأي د. تدمري. ولكن نرجح أنه كان كنيسة صليبية، أهملت بعد فتح طرابلس إلى أن حوّلها نائب السلطنة طينال إلى جامع، ونص النقش يقول بأن النائب أنشأ الجامع[٣٦]. ويظهر أثر الكنيسة في العقد[٣٧].

ـ جامع التوبة:

أو جامع الناصري، نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد بني ما بين ١٣٠٩ و١٣٤١ م، وموقعه في منطقة الزهرية إلى الضفة اليسرى لنهر أبي علي قرب الجسر الجديد وجامع الدبّاغين[٣٨].

ـ جامع العطّار:

نسبة إلى ناصر الدين أو بدر الدين العطّار. وقد بني على أنقاض كنيسة صليبية في منطقة الحديد العقارية على الضفة اليسرى لنهر أبي علي، قرب سوق الخراج حوالى سنة ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٥ م. وللجامع ثلاثة أبواب: الرئيسي في الجهة الشرقية ويؤدي إلى سوق البازركان، والباب الثاني في الجهة الغربية

ويؤدي إلى خان الجاويش والتربيعة، والثالث في الجهة الشمالية ويؤدي إلى السوق الجديد[٣٩].

ـ جامع أو مدرسة البرطاسي:

نسبة إلى بانيه عيسى بن عمر البرطاسي المتوفي سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م، ويقع على الضفة اليسرى لنهر أبي علي قرب جسر السويقة وباب الحديد. كان بناؤه حول سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م. وهو من أجمل جوامع طرابلس بقبته المزخرفة ومئذنته ذات الطابع الأندلسي ومحرابه الرائع وكان بانيه شادا للدواوين في طرابلس[٤٠].

ـ مسجد السيد عبد الواحد المكناسي:

في منطقة المهيترة العقارية، وقد بني حوالى سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ م. وتنسب الروايات الشعبية بناءه إلى شيخ مغربي يدعى عبد الواحد المكناسي من مدينة المكناس المغربية الذي اشترى خان أحد النصارى وحوّله إلى جامع موقوف للمغاربة[٤١].

ـ جامع أرغون شاه:

يقع على الضفة اليسرى لنهر أبي علي، قرب المدرسة السقرقية والمدرسة الخاتونية، عند نهاية حدود البناء في طرابلس القديمة في منطقة الحدادين العقارية. بانيه نائب طرابلس أرغون شاه الإبراهيمي، المتوفي سنة ٨٠١ هـ/ ١٣٩٩ م[٤٢].

ـ جامع القرطاوي:

وقد ورد ذكره في ابن أيبك[٤٣]، ولعله المدرسة القرطاوية.

٢ ـ الخانات:

خان المنزل:

وهو معروف بقيسارية اسندمر وكان قائماً قرب النهر بجوار حمام النائب المذكور، وأزيل بعد تقويم مجرى نهر أبي علي. وقد بناه ما بين سنة ٧٠٠ و

٧٠٩ هـ/ ١٣٠٠ و ١٣٠٩ م، نائب طرابلس سيف الدين اسندمر الكرجي. والتسمية الشعبية لهذا الخان كانت «قصر البرنس». ويرجح تدمري أنه كان قصراً افرنجياً تهدم أثناء الحصار على زمن السلطان المنصور قلاوون، فاتخذ اسندمر من حجارته خانا[٤٤]. وطالما نحن في باب الترجيح فلا شيء يمنع من أن يكون الخان قد رمّمَ فقط ولم يبن كما يذكر ذلك الدكتور تدمري.

٣ ـ المدارس:

١ ـ **المدرسة التدمرية، أو القادرية**: في محلة التربيعة من منطقة الزهرية العقارية، وكانت تعرف بمحلة «الصوافين». وقد أنشئت حوالى سنة ١٣٢٤ م على يد علم الدين سنجر، شاد دواوين طرابلس في ذلك الوقت. وهي مربّعة البناء، جدرانها سميكة، بوابتها في واجهتها الشرقية[٤٥].

٢ ـ **المدرسة النورية**: بمواجهة حمام النوري في أول سوق «الصيّاغين» في منطقة النوري العقارية. بنيت حوالى سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م[٤٦].

٣ ـ **مدرسة الخيرية حسن**: تقع على الضفة اليسرى لنهر أبي علي في زقاق يوصل إلى جامع السقرقية في منطقة النوري العقارية. بنيت بين سنتي ٧٠٩ و ٧٢٥ هـ/ ١٣٠٩ و ١٣٢٤ م[٤٧].

٤ ـ **المدرسة الشمسية**: على يسار الجامع المنصوري في منطقة النوري العقارية، وتستند إلى الحائط الشرقي للجامع الكبير. بنيت في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادي على يد أحمد بن أبي بكر الإسكندري الشافعي للتدريس على المذهب الشافعي[٤٨].

٥ ـ **المدرسة القرطاوية**: ملاصقة من الشرق للجامع المنصوري الكبير، بناها نائب السلطنة سيف الدين قرطاي سنة ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٨ م حسب نص النقش المنشور في «سوبرنهايم»[٤٩]. بين سنتي ٧١٦ و٧٢٦ هـ/ ١٣١٦ - ١٣٢٦ م حسب رأي تدمري، وهي أفخم وأضخم مدارس طرابلس المملوكية[٥٠].

٦ ـ **المدرسة البرطاشية**: الملاصقة للجامع البرطاشي، وقد أوقفها عيسى بن عمر البرطاشي للمشتغلين بالعلم على مذهب الإمام الشافعي. وهي ليس لها تاريخ على نقش الوقف الموجود على بابها، ويرجح أنها من عهد المماليك البحريين[٥١].

٤ ـ الحمامات:

ـ حمام اسندمر، أو حمام الحاجب:

وهو يقع وسط السوق المعروف قديماً باسم «سوق السلام» على الضفة الشرقية لنهر أبي علي، ولم يبق منه سوى بعض من آثاره في محلة «السويقة»[٥٢]. وقد عمّره اسندمر في عام ١٣٠٥م، وكان يعرف باسمه ثم حمل اسم حمام الحاجب[٥٣].

ويذكر تدمري، استناداً إلى قصيدة للشاعر الطرابلسي كاتب ديوان الإنشاء أحمد بن يوسف الطيبي المتوفى سنة ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م أن بناء الحمام تم في سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ م لا في سنة ٧٠٧ كما يذكر الدكتور سالم في كتابه عن طرابلس الشام[٥٤].

وقد شهد بعظمة هذا الحمام كلّ من النويري الذي عمل ناظراً على الجيش في طرابلس في سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م، وإبن بطوطة في رحلته الشهيرة التي مرّ بها على طرابلس في عام ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م[٥٥] وقيل شعر في بنائه في سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ م[٥٦].

ـ حمام النوري:

في أول سوق الصيّاغين بمواجهة المدرسة النورية، قرب الجامع المنصوري الكبير، وقد بني في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي. ولعل بانيه هو أحد كبار الموظفين المماليك[٥٧].

ـ حمام القاضي القرمي وزاويته:

وقد أزيلا، وكان بناؤهما على يد القاضي حسام الدين أبو محمد الحسن

بن القرمي (٦٨٠ و ٧٤٦/ ١٢٨١ و ١٣٤٥ م) بين سنتي ٧١٦ و ٧٢٣ هـ، تاريخ تولّيه القضاء في طرابلس التي توفي فيها آخر حياته، حيث دفن بظاهر الزاوية المعروفة به[٥٨].

ـ حمامات أخرى:

واستناداً إلى ابن فضل الله العمري، كان في طرابلس في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر عدة حمامات، لا يحددها المصدر المذكور[٥٩].

٥ ـ البيمارستان:

حسب رواية ابن فضل الله العمري، كان في طرابلس في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي بيمارستانان[٦٠].

أما القلقشندي فيذكر بيمارستانا واحداً فقط[٦١].

وبما أننا نعرف أن أيبك بنى بيمارستانا على عهد نيابته (٦٩٤ ـ ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٨ م) كما جاء في أبي الفداء (المتوفي عام ١٣٣٢ م) أن الأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر المتوفي في ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م) بنى بيمارستانا آخر[٦٢]، فتكون رواية العمري هي الصحيحة.

وكان بيمارستان أيبك قائماً تجاه الجامع البرطاسي، يفصل بينهما طريق جسر السويقة القديم، وقد أزيل بناؤه بعد تقويم مجرى النهر[٦٣].

٦ ـ الحصون والأبراج:

ـ داخل المدينة:

عمل اسندمر على تجديد حصن صنجيل[٦٤] وتحويل أحد مساكنه إلى دار يجلس فيها نائب السلطنة عرفت بـ«دار السعادة»، كما عمل على بناء أبراج حربية عند ساحل البحر[٦٥].

وعدد الأبراج التي بناها اسندمر غير معروف، فلا المصادر تحدّدها ولا الدراسات المعاصرة كذلك وصلت إلى نتيجة بشأنها.

هذه الأبراج والحصون، التي تذهب الروايات الشائعة إلى أن ما وجد منها في طرابلس بلغ عددها السبعة[٦٦]، نعرف تاريخ ست منها، ما عدا برج الفاخورة أو القناطر.

هذه الأبراج قد تكون صليبية أو مملوكية، وليس ضرورياً أن تكون مملوكية كما يجزم بذلك د. تدمري. ولربما هي مزيج من اثنين. وتوضيح هذه النقطة يتطلب عملاً علمياً دقيقاً.

وإلى جانب ذلك، كان قائماً في طرابلس، في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي برج عرف باسم «الصالحي» زال أثره وخرب، فأقام مكانه «جلبان» البرج المعروف باسمه[٦٧].

ـ خارج المدينة:

وخارج طرابلس ينسب د. تدمري، دون جزم، إلى اسندمر بناء برج كفرقاهل[٦٨].

وإضافة إلى هذا البرج، نجد خارج طرابلس برجين:

برج أبي العدس[٦٩]: شمال المدينة، على بعد ٣ كلم، حيث حالياً مصفاة البترول.

برج البحصاص: عند مدخل طرابلس الجنوبي، وكان قائماً قبل مشاهدة ابن فضل الله العمري له عند زيارته لطرابلس قبل عام ١٣٣٥ م[٧٠].

٧ ـ المساكن:

وأنشأ مماليك اسندمر مساكن حسنة البناء[٧١].

ويروي ابن فضل الله العمري، الذي جاء طرابلس قبل عام ١٣٣٥ م، أن البيوت يرقى إليها بالدرج العلية (راجع النص في موقع المدينة).

٨ ـ قنوات الماء:

وجرّ اسندمر المياه بقنوات إلى أبنية السكن (راجع نص ابن فضل الله

العمري في موقع المدينة). ويذكر النويري تأكيداً للعمري أن المياه كانت تطلع إلى أعلى المساكن وتجري في طبقاتها[٧٢].

٩ ـ الأسواق:

وإلى اسندمر يعود الفضل في بناء السويقة المعروفة باسمه[٧٣].

١٠ ـ القيساريات:

وإلى اسندمر يعود الفضل في بناء القيسارية المعروفة باسمه[٧٤]. وفي ظننا، ليس بالضروري أن يكون بانياً لها بل مجرد مرمّم.

١١ ـ الطواحين:

وقد بنى اسندمر طاحونة على نهر أبي علي، وأخرى في قرية كفرقاهل في منطقة الكورة[٧٥].

١٢ ـ الترب:

تربة طينال: وقد أنشأها طينال الأشرفي الناصري الحاجب، نائب طرابلس ثم صفد، قرب الجامع المعروف به[٧٦].

١٣ ـ أسباب العمران:

هذه الوقائع المذكورة أعلاه تظهر أن طرابلس في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي شهدت فورة عمرانية، أو إذا صح التعبير «الفورة الكبرى» في تاريخها الوسيط، ولربما الحديث.

هذه القفزة العمرانية نتج عنها:

- جوامع عدد ٦
- خان
- مدارس عدد ٦

- حمامات عدد ١٠
- بيمارستان
- أبراج وحصون
- مساكن
- قنوات المياه
- أسواق
- قيساريات
- طواحين
- ترب.

إنها بالفعل ورشة عمرانية كبيرة جداً بالقياس على مطلع العهد المملوكي وعلى ما في فترات هذا العهد.

ما هي أسباب هذه النهضة؟ لعلّ مردّ ذلك إلى عدة أسباب نوجز أهمها:

١ ـ الاستقرار النفسي بعد تراجع احتمالات عودة الصليبيين إلى الشرق.

٢ ـ استقرار الحكم المملوكي وبلوغه عصره الذهبي مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة.

٣ ـ استقرار الحكم المحلي في طرابلس مع وجود حكام ثابتين لفترات طويلة.

٤ ـ وجود استقرار مالي ووفر اقتصادي في الدولة المملوكية عامة، يشهد على ذلك سعر صرف العملة الذي سنتكلم عليه لاحقاً.

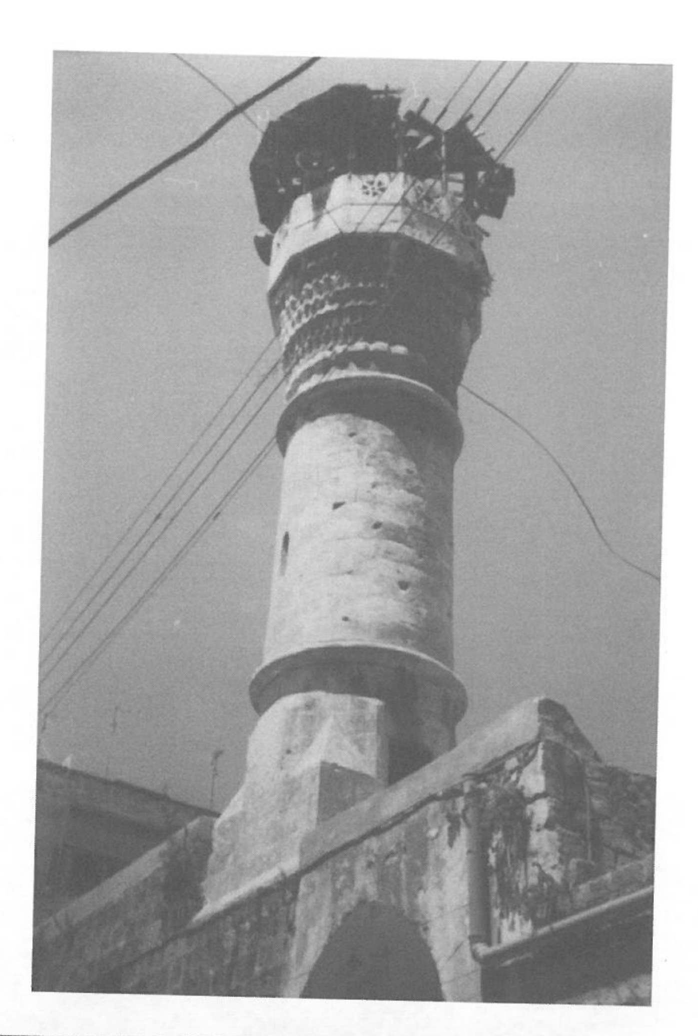
هذا الاستقرار على مختلف الصعد، شجع، لربما، هجرة الناس إلى المدينة، فقاد ذلك إلى عملية بناء للبنى التحتية للمدينة بما يتوافق مع عدد السكان، فكان هذا العدد من المساجد الذي إضافة إلى المسجدين السابق ذكرهما، يؤمن حاجة السكان الذين قدّرنا عددهم بما يقارب العشرين ألفاً. وهذا

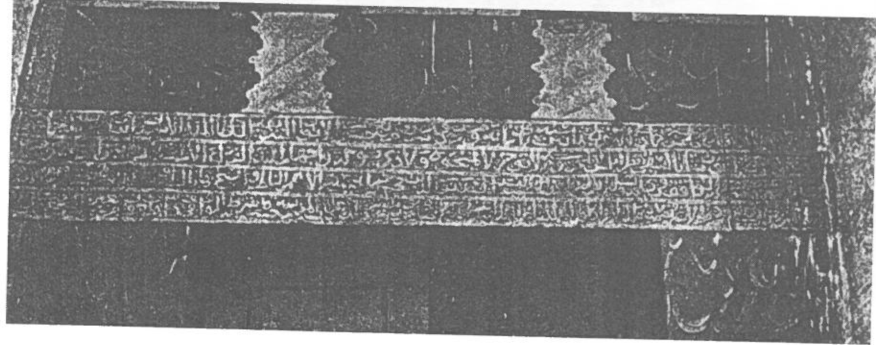
ما اقتضى وجود حمامات بكثرة. ويشهد على كثرة عدد السكان أن عدد الجند في المدينة ارتفع من ستماية إلى ما ينيف على الأربعة آلاف جندي.

ولاستيعاب هذا العدد المتزايد من السكان تطوّر عدد المدارس من واحدة إلى سبع. وأضيف مستشفى إلى ما كان موجوداً سابقاً، وكثرت المساكن وجرت المياه إليها، ونشأت الأسواق والطواحين وقامت الأبراج لحماية هذا العدد الكبير من السكان، الذي اقتضى وجوده إنشاء المقابر.

ومع تكاثر السكان وقيام العمران، نشطت الحركة التجارية، فكان لا بدّ من إيجاد الخان لتأمين الخدمات للتجار.

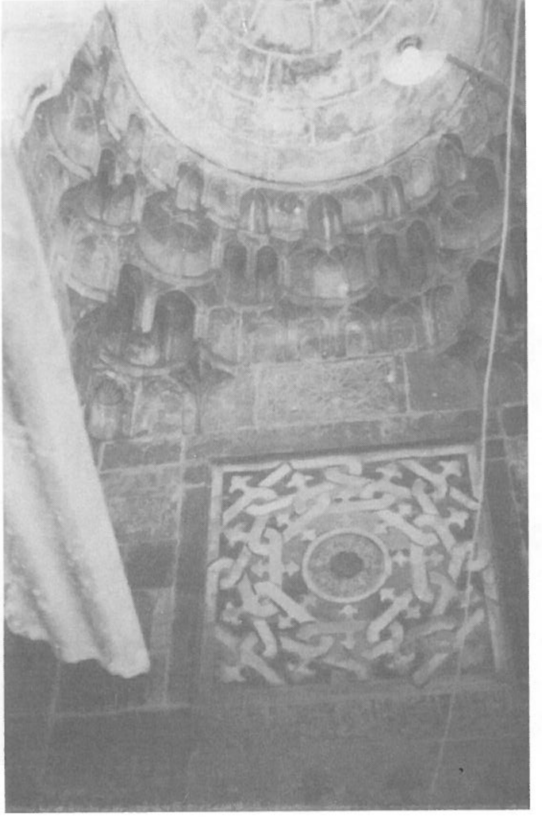
ولكن هل يبقى هذا العمران على حاله في النصف الثاني من القرن الرابع عشر؟



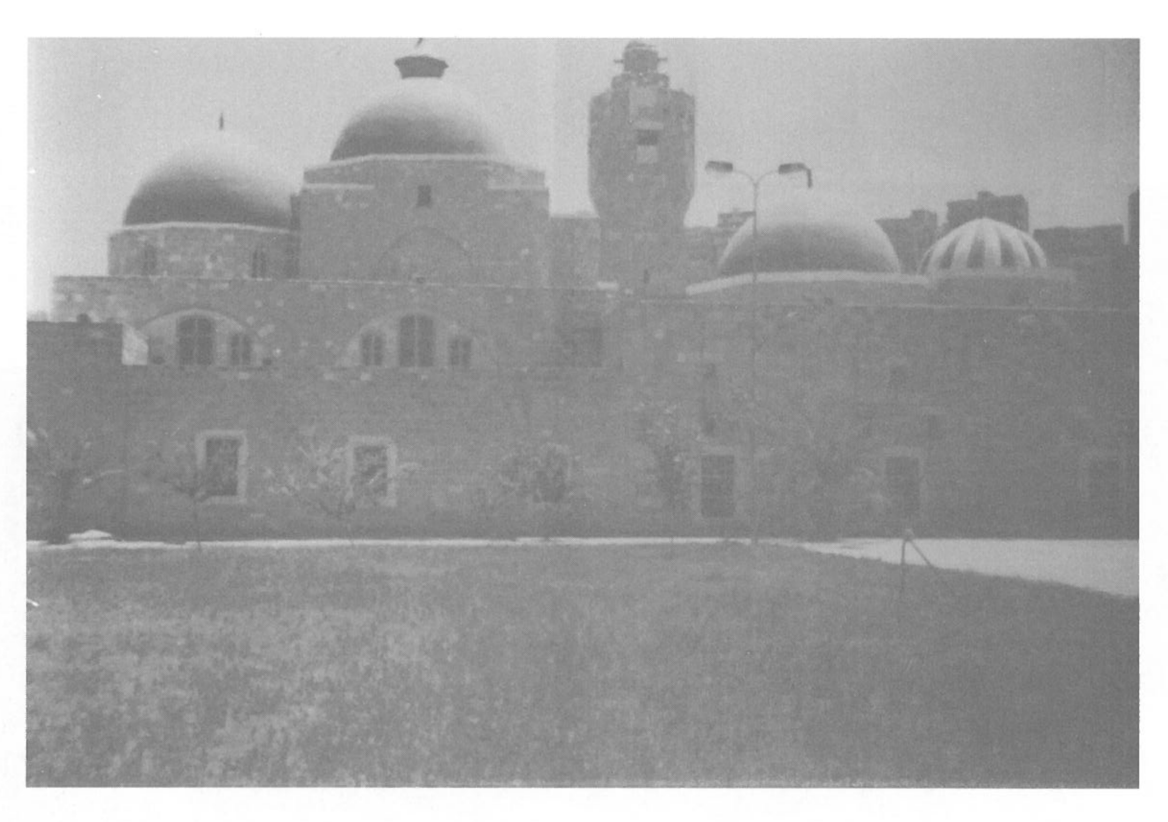


جامع أرغون مع مرسوم اسندمر.



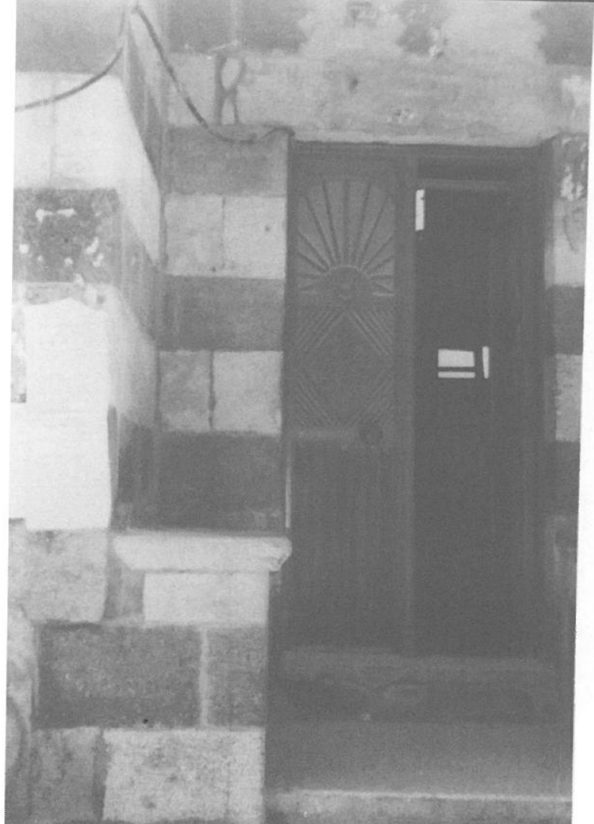


جامع العطّار: الباب الرئيسي والمنبر

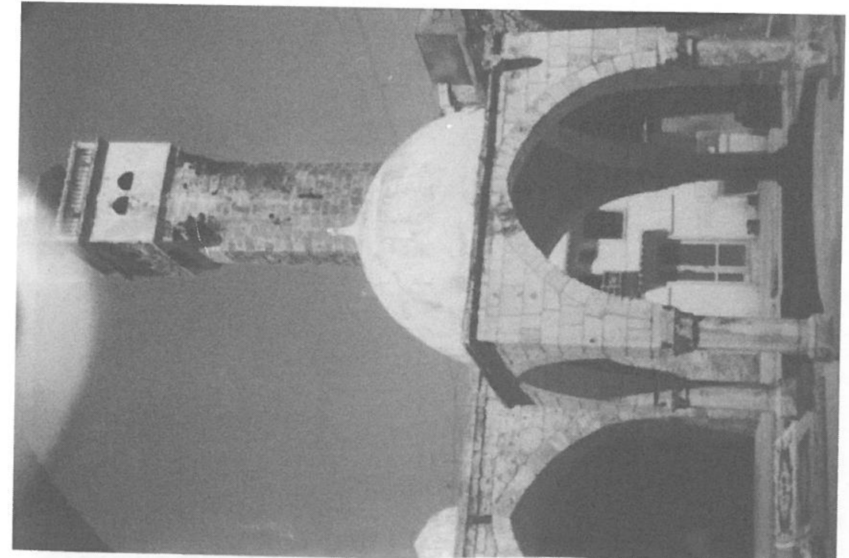


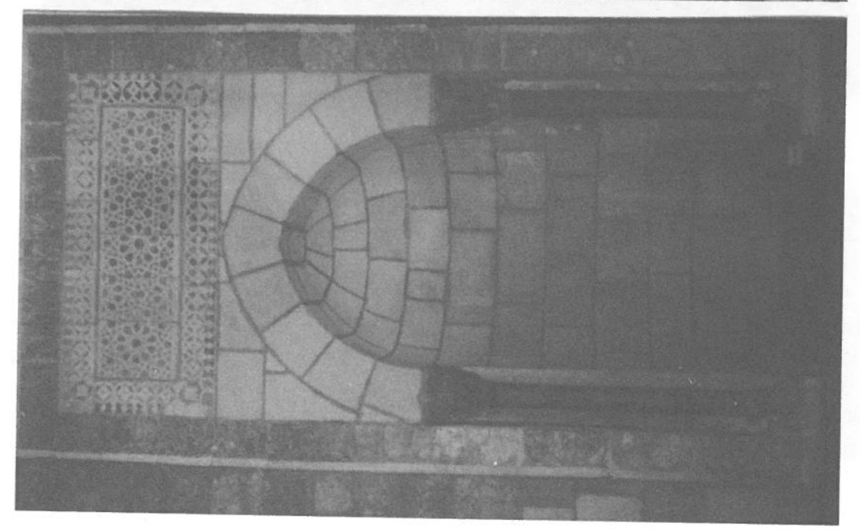
جامع طينال



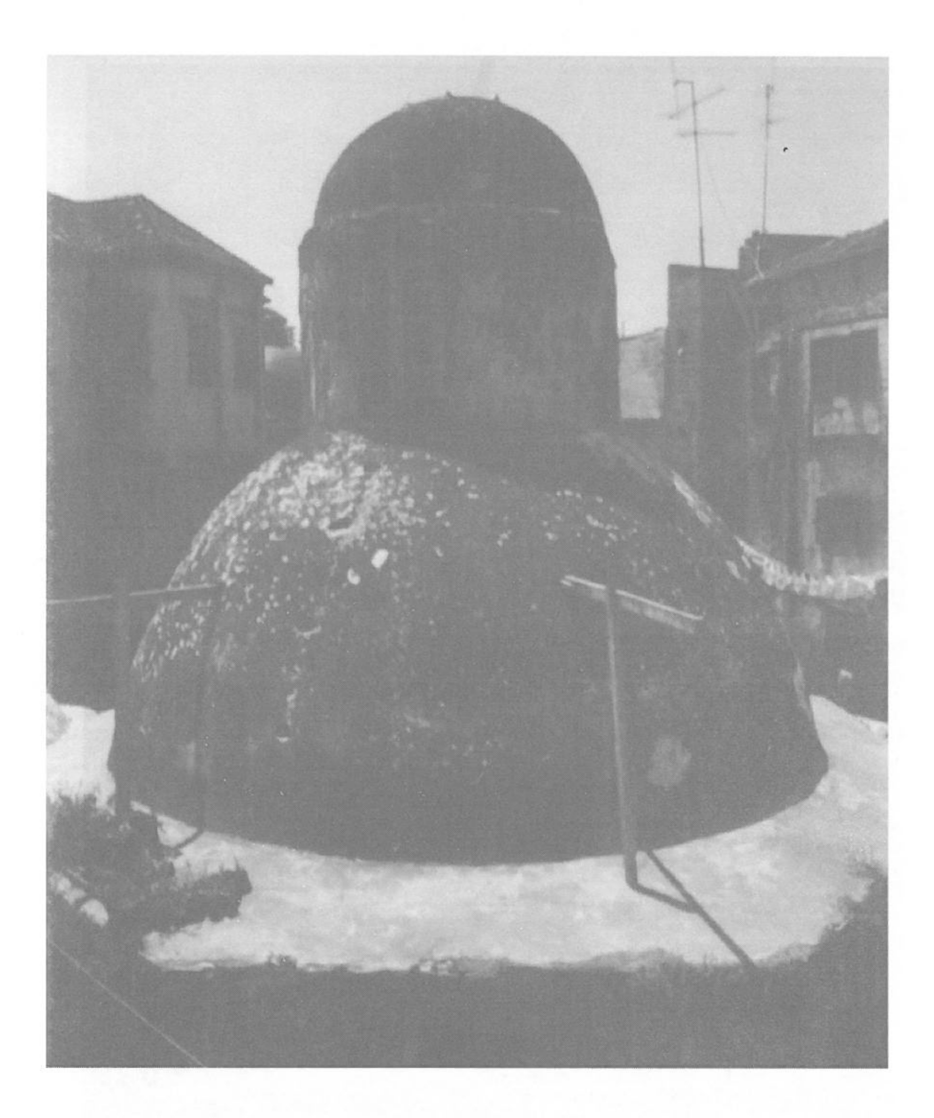


مدخل المدرسة القادرية



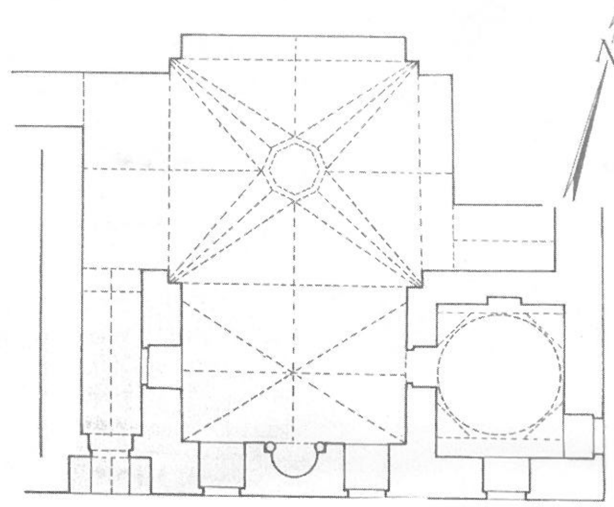


جامع التوبة مع محرابه

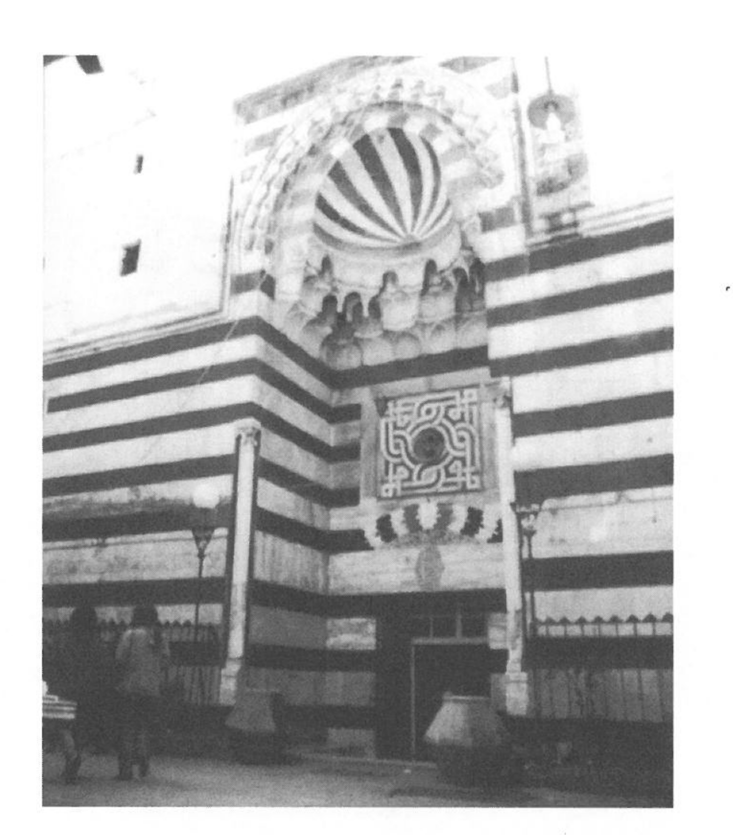


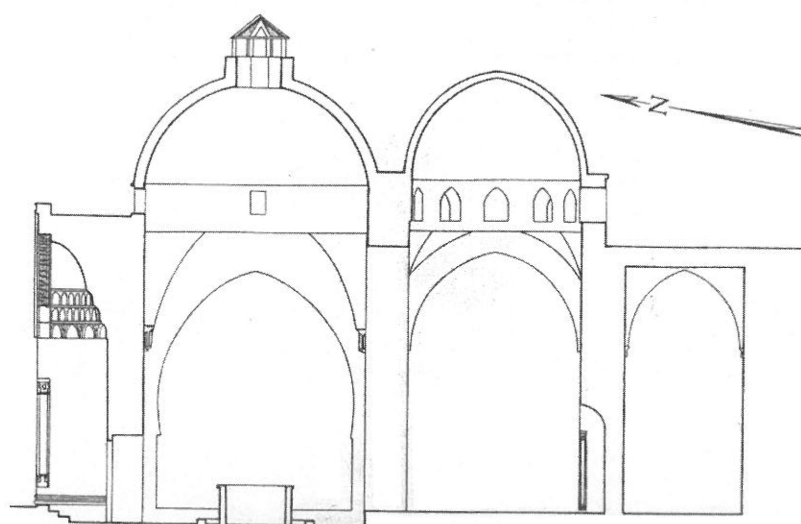
حمام النوري



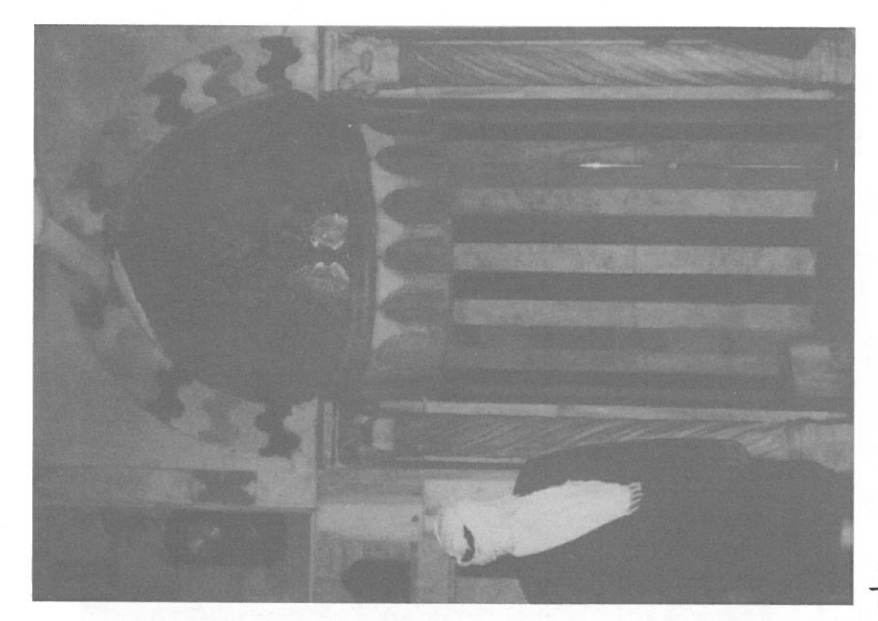


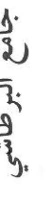
تصميم وواجهة المدرسة النورية





تصميم باب المدرسة القرطاوية





جامع البرطاشي





مدرسة الخيرية حسن

د ـ العمران في النصف الثاني من القرن الرابع عشر

١ ـ المدارس:

يخبر ابن فضل الله العمري أنه كان يوجد في طرابلس في أواخر النصف الثاني من القرن الرابع عشر عدة مدارس وزوايا(٧٧).

ومن هذه المدارس:

- مدرسة «سبط العطّار»: التي بناها ابن بنت ناصر الدين العطار في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وهي كانت قائمة على طريق السوسية في منطقة الحديد العقارية على الضفة اليسرى لنهر أبي علي على مقربة من الجسر الجديد. وقد أزيلت بعد إصلاح مجرى النهر، ولم يبق منها سوى بابها الغربي، وعلى يساره نقش قسم من مرسوم قاضي قضاة طرابلس المالكي بتاريخ ٨٦٢ هـ/ ١٤٥٧ م(٧٨).
- المدرسة الظاهرية: التي بناها الأمير تغري برمش الظاهري في عام ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٩ م، جنوب غرب الجامع البرطاسي، عند أول الطريق المعروفة بـ«تحت السبط» في منطقة الحديد العقارية على الضفة اليسرى لنهر أبي علي(٧٩).
- المدرسة الناصرية: المنسوبة إلى السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الذي بناها بين سنتي ٧٥٥ و ٧٦٢ هـ/ ١٣٥٤ و ١٣٦٠ م، وهي تقع بمواجهة المدخل الرئيس للجامع المنصوري الكبير في منطقة النوري العقارية(٨٠).
- المدرسة السقرقية: التي بناها «سيف الدين اقطرق الحاجب» في عام ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩ م، قرب جامع أرغون شاه، بمواجهة المدرسة الخاتونية(٨١).
- المدرسة الخاتونية: التي بناها نائب السلطنة «عز الدين ايدمر» بالاشتراك مع زوجته «أرغون» في ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٤ م، بمواجهة المدرسة السقرقية في

منطقة الحدادين العقارية على الضفة اليسرى لنهر أبي علي في جنوب غربي المدينة قرب باب طيلان، وهي مهملة(٨٢).

- المدرسة العجمية: التي بناها محمد السكر في سنة ٧٦٦ هـ/ ١٣٦٥ م، وتقع عند منتصف الدرج الموصل إلى القلعة عند أول زقاق مصبنة عويضة على الضفة اليسرى لنهر أبي علي في المنطقة العالية من طرابلس(٨٣).

٢ ـ الحمامات:

ومن حمامات النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، حمام العطّار، نسبة إلى ناصر الدين العطّار، خال صاحب مدرسة سبط العطّار وصاحب جامع العطّار. ولم يبق من هذا الحمام سوى واجهته الغربية المطلّة على بركة الملاحة وهو وقف لمدرسة العطّار(٨٤).

٣ ـ الأبراج:

ومن أبراج هذه الفترة، برج الديوان أو برج السراي، أو برج النبط، أو برج ايتمش. ويقوم مكانه الآن جامع عمر بن الخطّاب، وقد بناه سيف الدين ايتمش البجاسي الجركسي، أتابك السلطان برقوق، بين سنتي ٧٩٢ و ٨٠١ هـ/ ١٣٩٠ و ١٣٩٩ م.

ويخالف «درّاج» هذا الرأي فيذكر أن البرج بناه برسباي عام ١٤٢٥ م(٨٥).

٤ ـ الترب:

- تربة محمد السكر: وقد أنشأها، حسبما يذكر نص نقش عليها، محمد السكر في مستهل شهر رمضان سنة ٧٦٦ هـ/ ١٣٦٥ م(٨٦).
- تربة أرغون: وقد بناها النائب عز الدين أيدمر الأشرفي لزوجته أرغون في عام ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤ م(٨٧).

٥ ـ أسباب بدء تراجع العمران:

يعزو «لابيدوس» ازدهار العمران في طرابلس في القرن الرابع عشر، إلى

الزراعة والأعمال العسكرية والإدارية إضافة إلى كمية محدودة من التجارة. فهذه العوامل هي التي جعلتها مدينة مهمة، لأن التجارة، برغم وفرتها، لم يكن لها تأثير ظاهر على المدن(٨٨).

ونحن لا نوافق الباحث المذكور رأيه في الكامل، إذ يجب أن نفصل، كما فعلنا، بين النصف الأول من القرن الرابع عشر والنصف الثاني منه.

فالنصف الثاني لا يسجل بناء مساجد جديدة، وخانات، ولربما أسواق وقيساريات وطواحين ومساكن بكثرة. جلّ ما نعرفه هو:

- بناء مدارس عدد ٦
- حمام عدد واحد
- برج عدد واحد.

ليس لدينا تفسير لذلك ينطلق من معطيات وثائقية، بل إذا أمعنا الاجتهاد لوجدنا أن السبب يعود إلى:

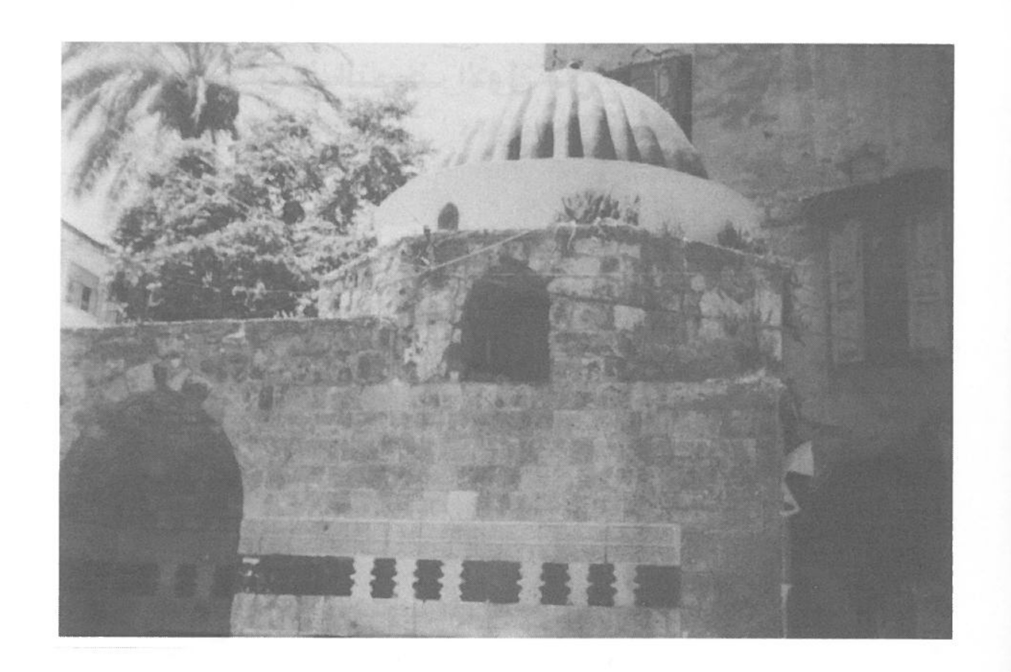
- تراجع نسبة التكاثر السكاني المطّرد
- بداية انحطاط الدولة المملوكية مع خلفاء الناصر محمد بن قلاوون على كل الصعد السياسية والمالية.
- دور الطاعون بعد الفناء الكبير، في تراجع الإقبال على السكن في بلاد الشام.
- عدم استقرار السلطة المحلية في طرابلس، يشهد على ذلك كثرة الذين تولّوا نيابة السلطنة فيها لأقل من سنة إذ يبلغ عددهم خمسة وعشرين نائباً من أصل تسعة وأربعين حكموا من عهد الصالح إسماعيل خليفة محمد بن قلاوون حتى عهد برقوق، كما حكم ١٣ نائباً لسنة واحدة.

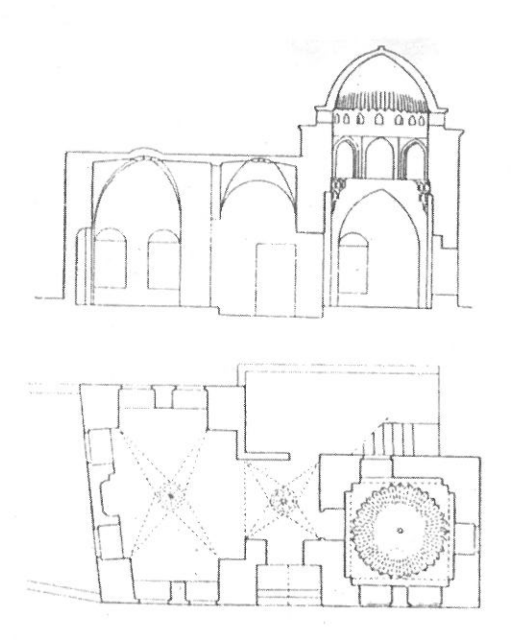
هذا الشبه جمود، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، هل يبقى مستمراً في النصف الأول من القرن الخامس عشر؟





المدرسة الخاتونية مع النقوش على واجهتها





المدرسة السقرقية مع مقطع من تصميمها

هـ ـ العمران في النصف الأول من القرن الخامس عشر

١ ـ سبل ماء:

ـ **عين التينة**: ومن أقدم سبل الماء المتبقية من عصر المماليك، نبع عين التينة، وهو ملاصق للحمام الجديد في منطقة الحدادين العقارية على المجرى الأيسر لنهر أبي علي، في المنطقة العالية من المدينة بمواجهة الجامع المعلّق. وقد أنشأه محمد بن زين الدين مباركشاه العلاي في مستهل عام ٨١٦ هـ/ ١٤١٣ م، حسبما يذكر ذلك النقش القائم فوق السبيل[٨٩].

٢ ـ الأبراج:

ومن أبراج النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي نجد الآتي:

- **برج الشيخ عفّان أو التكية**: عند مدخل الميناء الشرقي. وهو من بناء الأمير سيف الدين طرباي، نائب طرابلس (١٤٢٨ ـ ١٤٣٥ م)[٩٠].
- **برج المغاربة أو برج عز الدين**: بجوار مطعم الشاطىء الفضي. ويرجّح د. تدمري أن يكون من بناء سيف الدين جلبان، نائب طرابلس (١٤٢٨ ـ ١٤٣٩ م)[٩١]، واضع الوقفية المشهورة باسمه[٩٢].
- **برج السباع أو برج برسباي**: على شاطىء البحر، بعد برج قايتباي لجهة الغرب. وتختلف الاجتهادات في تسميته: فالمستشرقون يعطونه تسمية السباع، مرجعين ذلك إلى أصل صليبي، على الطراز الهندسي الجنوي، ويعزو أحدهم «بوركهارت» التسمية إلى رواية محلية تقول إن سباعاً كانت محفورة قديماً فوق البرج، وهي شعار ريمون دوسان جيل، أما الدكتور تدمري فيعتبر أن تسمية سباع هي تصحيف لاسم برسباي، نائب طرابلس (١٤٤٠ ـ ١٤٤٨ م) ولا يعير اهتماماً كبيراً لتفرّد أسد رستم بالقول إن برج السباع هو البرج السابع[٩٣].

ورأى آخر يقول بأن البرج المذكور من بناء السلطان برقوق، وإن ما قام به برسباي هو إعادة ترميم البرج في عام ١٤٢٥ م، لتأمين خط الدفاع عن طرابلس أثناء غزو قبرص[٩٤].

برج ايتمش: بناه الأمير ايتمش البجاسي، أتابك عسكر طرابلس لأجل المرابطة[٩٥].

٣ ـ البرك

- بركة زاوية: بركة ابتناها دمرداش المحمودي برقوق[٩٦].

٤ ـ أسباب تراجع العمران:

كما تشير الوقائع المذكورة أعلاه، لا يبدو أن النصف الأول من القرن الخامس عشر كان أفضل حالاً من النصف الثاني من القرن الرابع عشر. فلا مساجد جديدة، ولا خانات ولا بيمارستانات ولا حمامات إلخ...، بل، لربما، أن كل ما نجده من عمران كان:

- سبيل ماء عدد واحد.
- أبراج عدد ٣.
- زاوية عدد ٣.

لماذا اقتصر العمران على الحاجات الدفاعية فقط وتجمّد في الميادين الأخرى؟ لعلّ من أسباب ذلك العوامل الآتية:

١ ـ عدم استقرار الأوضاع الإدارية والسياسية.

٢ ـ ضعف الإمكانيات المادية في الدولة مع تراجع سعر صرف عملتها، كما تشير إلى ذلك دراسة ميكانيكية صرف العملة.

٣ ـ وصول المماليك البرجيين أو الشراكسة إلى السلطة وما ترافق ذلك من انهيار سياسي، لا ضرورة للإفاضة في شرحه، وهو من المسلّمات في الدراسات التاريخية.

٤ ـ كثرة الحروب الأهلية الدامية بين نوّاب السلطنة في النيابات الشامية ومع السلاطين. والفتن التي عرفتها طرابلس، وقد سبق الكلام عليها، وراح ضحيتها آلاف من السكان.

هذه الصراعات الحربية هي التي زادت، لربما، في عدد الأبراج والحصون التي ستنشأ في طرابلس، والتي ستميّز العمران فيها في النصف الأول من القرن الخامس عشر.

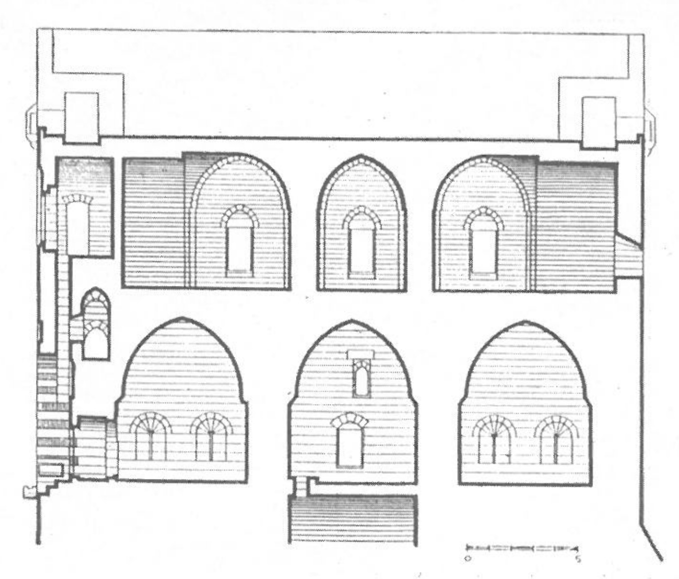
أضف إلى هذا العنصر الحربي الخوف من الهجمات المغولية التي طبعت بلاد الشام في مطلع القرن الخامس عشر بطابعها المخيف، وقد تكلمنا عليها في باب جهاد طرابلس ضد المغول في الفصل الأول من هذا البحث.

أضف إلى ذلك غزوات الجنوية الفرنجة الذين استغلوا حالة الرعب القائمة في المدن الساحلية من جرّاء الغزو المغولي لبلاد الشام على يد تيمورلنك، ولم يوضع حدّ لهذه الغزوات الفرنجية إلا بعد غزو قبرص وفتحها.

هذه الوقائع، خاصة وقائع الفتن الداخلية، مع يلبغا الناصري ومنطاش في أواخر القرن الرابع عشر، ومع يونس بلطا في عام ٨٠٢ هـ/ ١٤٠٠ م وجكم في ٨٠٦ ـ ٨٠٩ هـ، ثم شيخ ونوروز ٨١٠ ـ ٨١٧ هـ، وغيرها من فتن سياسية وإدارية واجتماعية، ذكرنا بعضها سابقاً، إضافة إلى حالة اللااستقرار العامة، ألحقت أكبر الأذى بطرابلس وبنيابتها وأعاقت مسيرة تطوّر العمران فيها.

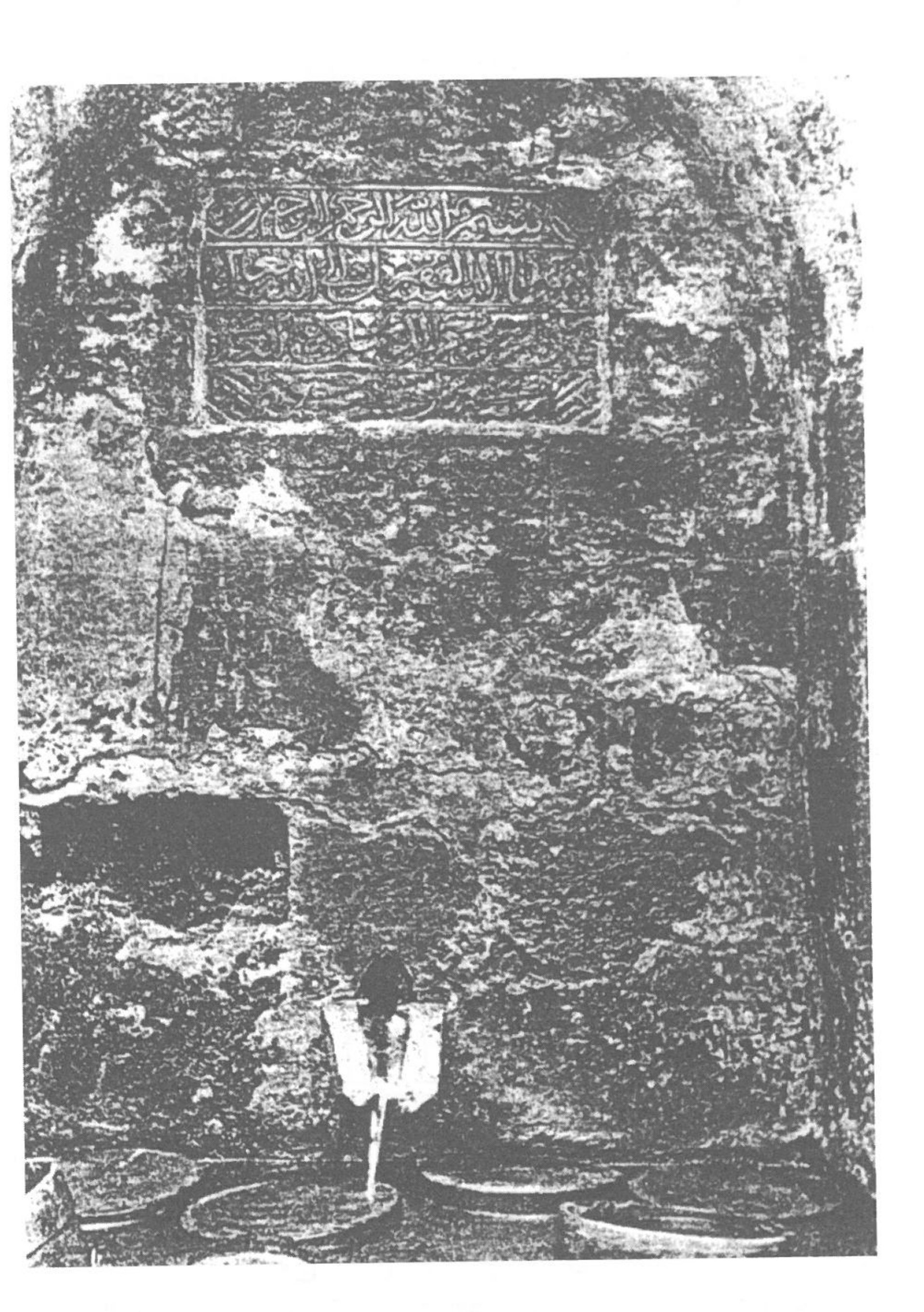
ولكن هذا الجمود، لن يبقى على حاله في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، برغم أنه لن يكون على مستوى النصف الأول من القرن الرابع عشر.





برج السباع مع مقطع هندسي له

J. Sauvaget, «Notes sur les défenses de la marine de Tripoli», BMB II (1938), p. 12, Fig. 7



عين التينة

و ـ العمران في النصف الثاني من القرن الخامس عشر

١ ـ الجوامع:

ومن مساجد النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، نجد:

جامع الأويسة: المنسوب إلى محيي الدين الأويسي، الذي بناه في عام ٨٦٥ هـ/ ١٤٦٥ م. ويقع في منطقة الحديد العقارية. ولعلّ الأويسة هو أحد شيوخ الطريقة الصوفية الأويسة[٩٧].

٢ ـ المدارس:

ومن مدارس هذه الفترة نجد:

- **المدرسة العمرية أو العنبرية:** التي أسسها اسندمر بن بدر الدين صدقه العنبري في عام ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٦ م. وقد أزيلت وأضيفت إلى أرض مدرسة الأخوة المريميين[٩٨].
- **المدرسة الطوشية:** المنسوبة إلى الأمير سيف الدين محمد الطواشي المتوفى سنة ١٤٧١ م. وتقع في وسط سوق الصيّاغين في منطقة الرمانة العقارية[٩٩].

٣ ـ الخانقاوات:

ونجد منها خانقاه الست صالحة، التي كانت تسكنها فنسبت إليها وقد بنيت حوالي سنة ١٤٦٧ م في الجهة الشرقية من الجامع المعلّق بطلعة العوينات في منطقة الحدادين العقارية. وهي الخانقاه الوحيدة من العهد المملوكي في طرابلس[١٠٠].

٤ ـ الأبراج:

ونجد من أبراج النصف الثاني من القرن الخامس عشر، في مدينة طرابلس، برج رأس النهر. ويرجّح أن يكون من بناء السلطان قايتباي عند

الطرف الغربي من مصب نهر أبي علي. وعرف باسم «البرج البلدي». وطراز عمارته مشابه لقلعة قايتباي بالإسكندرية. وكان السلطان المذكور قد زار طرابلس في عام ١٤٧٧ م[١٠١].

وبهذا البرج، يكون عدد الأبراج التي أحاطت بطرابلس ونعرف تاريخ بنائها ستة، أما السابع منها فهو برج الفاخورة أو القناطر، الذي كان يقوم ما بين برجي برسباي والشيخ عفّان، حيث توجد الآن محطة القطار الحديدي[١٠٢].

٥ ـ أسباب محاولة النهضة في العمران:

مع النصف الثاني من القرن الخامس عشر سيعود ما يشبه العمران ليدقّ باب مدينة طرابلس بعد قرن من شبه الجمود. إذ نجد أن مسجداً جديداً سيبنى ومدرستين وخانقاه وأبراجاً كما في الماضي.

ولاحظت بعض المصادر أن الأشرف قايتباي عمل على تجديد المدارس والجوامع وأبراج السواحل[١٠٣]. وكان قد سافر من القاهرة إلى وادي التيم وإلى البقاع وبعلبك وطرابلس والسواحل[١٠٤].

قد لا يكون بناء جامع جديد شيئاً يذكر بالقياس على النصف الأول من القرن الرابع عشر، كما لا نجد بناء لخانات وبيمارستانات ومساكن وغيرها، بل فقط زيادة في عدد المدارس.

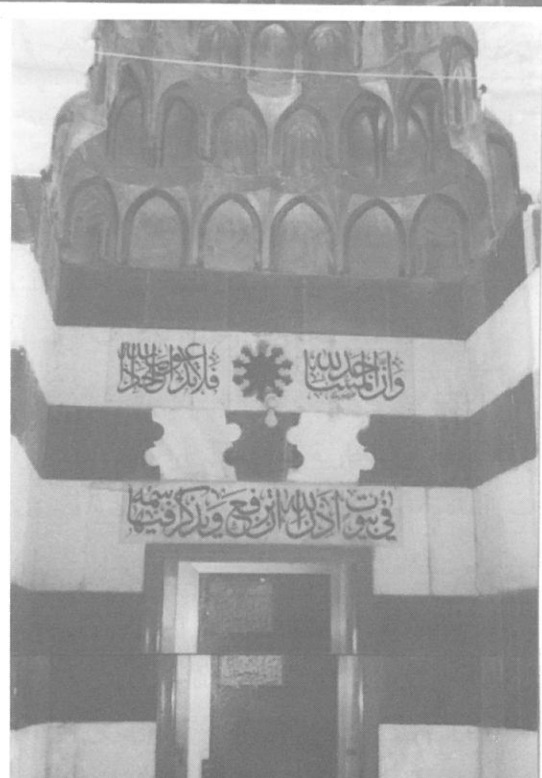
إذاً، الخدمات الصحية والتجارية تراجعت أو تجمّدت، ولعلّ سبب ذلك إما ضعف الإمكانيات المادية أو ضعف الحركة الإقتصادية في المدينة. ولا نجد شرحاً لزيادة عدد المدارس فقط.

ولعلّ بناء المسجد والمدارس جاء: نتيجة ازدياد الاتجاهات الصوفية في جسم الدولة المملوكية كلّما اقتربنا من العهد العثماني، الذي ستعرف فيه الحركات الصوفية مجدها، كما يمكن ردّه إلى أن الحكم في النيابة كان أكثر استقراراً من العهد السابق، يشهد على ذلك استقراراً لبعض النوّاب لعدة سنوات في طرابلس.

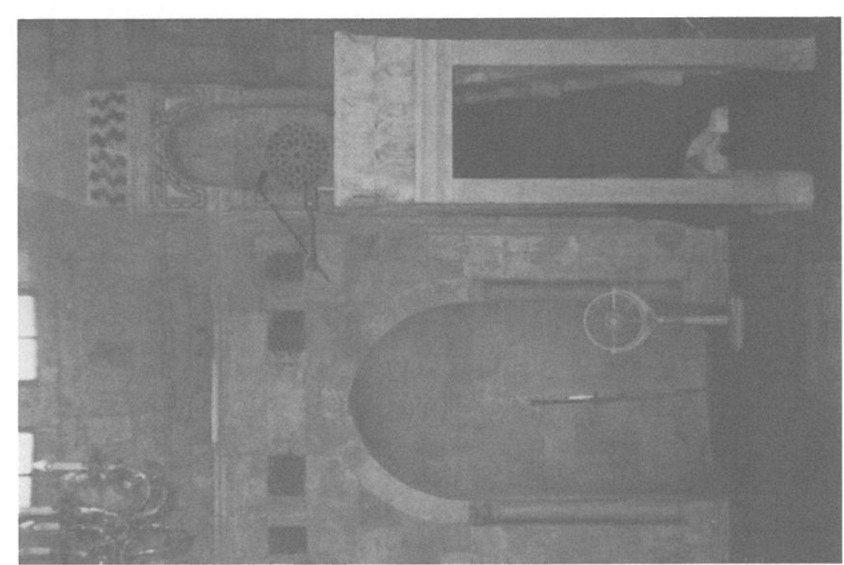
أما بناء الأبراج فهو تكملة للإجراءات الدفاعية القائمة في السلطنة المملوكية والتي كان المماليك يعمدون إلى إنشائها كلّما ازداد شعورهم بتراجع قوة دولتهم.

هذا التراجع لم يكن وليد الساعة، بل جاء نتيجة عوامل عدة متشعّبة وقد انعكس بصورة جليّة في حركة تطور العمران في طرابلس، التي تعرّفنا إلى بعض مظاهرها من خلال ما تبقى من أبنية لها تاريخها المحدّد. وهذا التراث العمراني لا يقتصر على ما ذكرنا أعلاه، إذ هناك أيضاً آثار عمرانية مملوكية ليس لها من تاريخ محدد، سنورد أهمها.



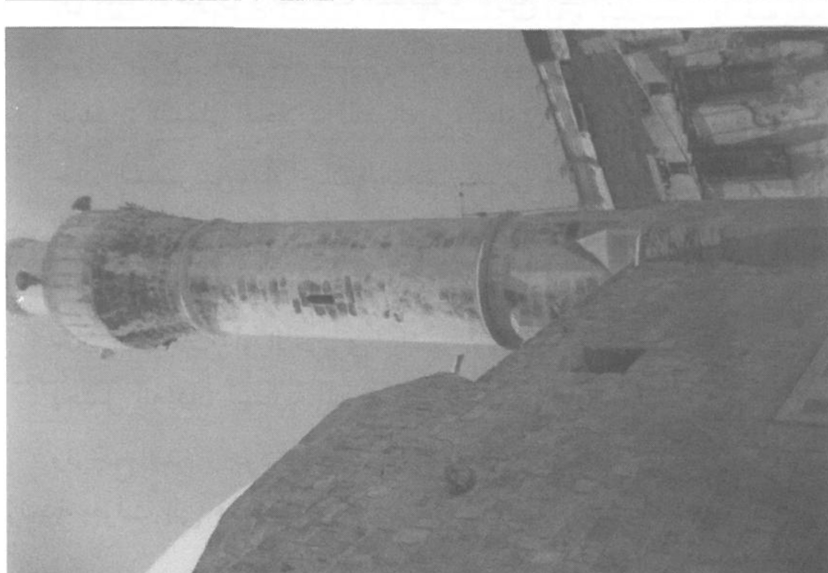


المدرسة الطوشية: القبّة والمدخل





جامع الأويسية



ز ـ آثار عمرانية مملوكية من دون نقوش تحدّد تاريخها

١ ـ الجوامع:

ومن المساجد المملوكية التي لا نعرف تاريخ بنائها:

- **مسجد الحجيجية**: في سوق النحّاسين، وكان كنيسة صليبية في الأصل[١٠٥]. ولا يزال الشاهد الصليبي واضحاً في المئذنة.
- **مسجد الطحّام**: في قبوة الحتة بحي الحدادين[١٠٦]. هندسته مملوكية.
- **جامع الدبّاغين**: كان قرب المسلخ القديم، كان عليه نقش من السلطان قايتباي من العام ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م، بشأن الدبّاغين. كما كان يوجد نقش يذكر أنّه أعيد ترميمه في عام ٩١٣ هـ// ١٥٠٨ م[١٠٧].

٢ ـ أسواق وخانات:

من هذه الأسواق والخانات المجهولة تاريخ البناء:

- سوق حراج: وهو بناء صليبي، حوّل إلى خان وعرف بالقيسارية. كان من طابقين: السفلي محلات للبضائع، والعلوي حجرات للنوم[١٠٨].
- خان المصريين، أو خان العجم: غربي سوق البازركان بمواجهة خان الخياطين وجامع العطّار وحمام عزّ الدين. وكان ينزل به التجار المصريون والأعاجم[١٠٩].
- خان الخياطين أو الحريري: أشهر وأقدم الخانات القائمة في طرابلس. يحتمل أنه كان قيسارية للفرنج كما يوحي بذلك شكله[١١٠].

ونرجّح عدم وجود تاريخ لبناء هذه الأسواق والخانات، إلى كونها أبنية افرنجية حوّلت إلى هذه الوظيفة الجديدة، أو أنها كانت كذلك فيما مضى.

٣ ـ مدارس:

ومن المدارس التي لا نعرف تاريخ بنائها، وتوحي أنها، لربما، من عهد المماليك:

- مدرسة ومزار «حسن البشناتي»: في منطقة السويقة العقارية عند باب التبانة[١١١].
- مدرسة ومزار السبسبية: نسبة لأسرة السبسبي، في محلة السويقة العقارية[١١٢]. وليس أكيداً أن تكون مملوكية كما يصنفها الدكتور تدمري، فلا شيء يحول دون كونها عثمانية.
- مدرسة الرفاعية: على الضفة اليسرى لنهر أبي علي. وعلى بنائها نصّ منقوش من السلطان خشقدم من عام ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٥ م بخصوص أعمال السمسرة[١١٣].
- المدرسة القادرية، أو مدرسة العقادين: في محلة باب الحديد، جنوبي حمام عز الدين[١١٤].
- المدرسة البطريركية: كانت مقراً لبطريرك النصارى فحوّلها المماليك إلى مدرسة أو مسجد، وقد أزيلت الآن، وكانت تقوم في منطقة الحديد العقارية غربي جامع البرطاسي[١١٥].
- مدرسة النسر بن عجبور: في محلة البحصة جنوبي جسر السويقة، وقد تهدمت في فيضان نهر أبي علي سنة ١٩٥٥ م[١١٦].
- المدرسة الكريمية: في وسط زقاق يوصل بين سوقي الصيّاغين والعطّارين[١١٧].
- مدرسة المشهد: مواجهة للمدرسة الشمسية إلى جانب الجامع المنصوري[١١٨].

٤ ـ مزارات:

ومن المزارات التي لم نتمكن من تحديد تاريخ بنائها:

- مزار السيّدة للروم الأرثوذكس: في زقاق البرطاسية. ولعلّ جهلنا لتاريخ بنائها عائد إلى كونها في الأصل بناء لاتينياً[١١٩].

- مزار عائشة البشناتية: وقد ورد اسمها في سيرة الملك بيبرس، وكان يقع في حارة النصارى، فأزيل وضمّ إلى مدرسة الطليان[١٢٠].
- مصلى الأويسة: كان في الأصل كنيسة صغيرة صليبية ثم حوّل باتفاق حبي مع المسيحيين إلى جزء من جامع الأويسة[١٢١]. ولعلّ كونه في الأصل بناءً صليبياً قد حتّم جهلنا لتاريخ بنائه.
- مزار عبد السلام المغربي الشيشي: ويتصل بالنسب بصاحب جامع المكناسي الذي قصد طرابلس في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي[١٢٢].
- مقام الشيخ فضل الله المغربي: في محلة قبور الزيني[١٢٣].

٥ ـ حمامات:

من هذه الحمامات التي لم نتمكن من تحديد تاريخ بنائها نجد: حماماً قد أزيل، وبني في عام ١٧٤٠ م على أنقاضه، على حدّ ترجيح د. تدمري، الحمام المعروف بالجديد[١٢٤].

٦ ـ دور:

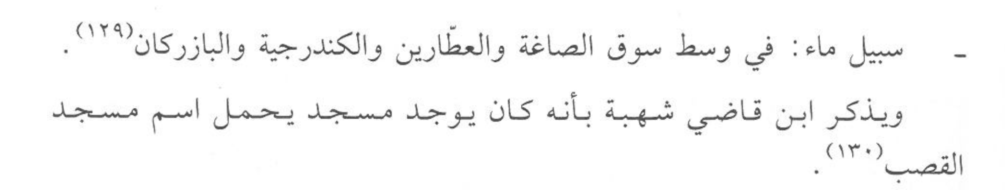
ومن الدور المملوكية التي نجهل تاريخ بنائها:

- دار الأمير سيف الدين الطنطاش على ضفة نهر أبي علي جنوبي حمّام العطّار، حسبما تذكر لوحة منقوشة على إحدى الدور[١٢٥].
- دور كبيرة في سفح ظهر المعز شمالي حمام الحاجب[١٢٦].
- دار في الطريق إلى بركة الملاحة وعليها كتابة من سنة ٨٢٠ هـ/ ١٤١٧ م[١٢٧].

٧ ـ برك وسبل ماء:

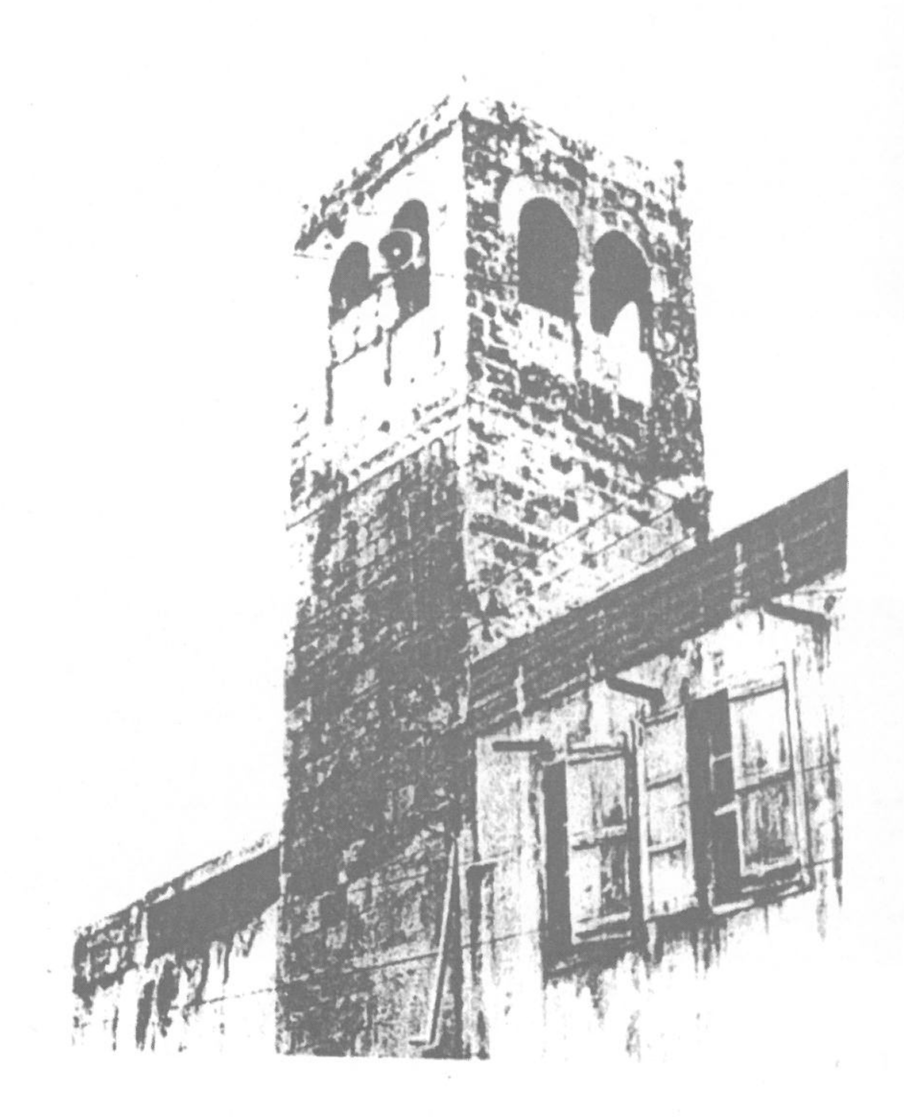
ونجد منها في طرابلس من عهد المماليك وليس له تاريخ بناء:

- بركة الدباغة: كانت قرب جامع التوبة وأزيلت[١٢٨].

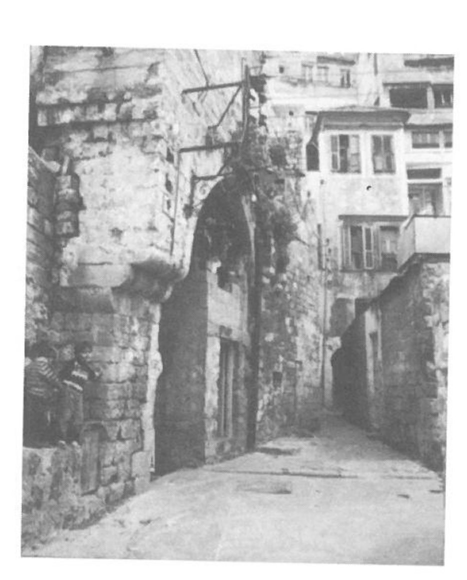


- سبيل ماء: في وسط سوق الصاغة والعطّارين والكندرجية والبازركان[١٢٩].

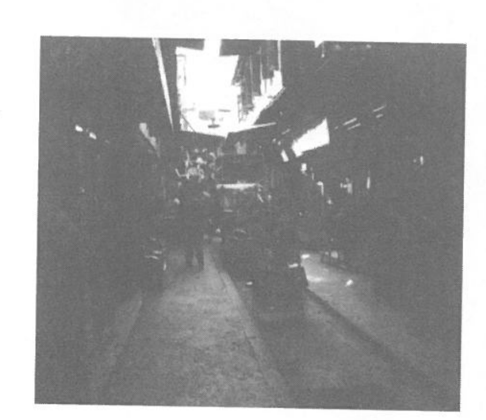
ويذكر ابن قاضي شهبة بأنه كان يوجد مسجد يحمل اسم مسجد القصب[١٣٠].



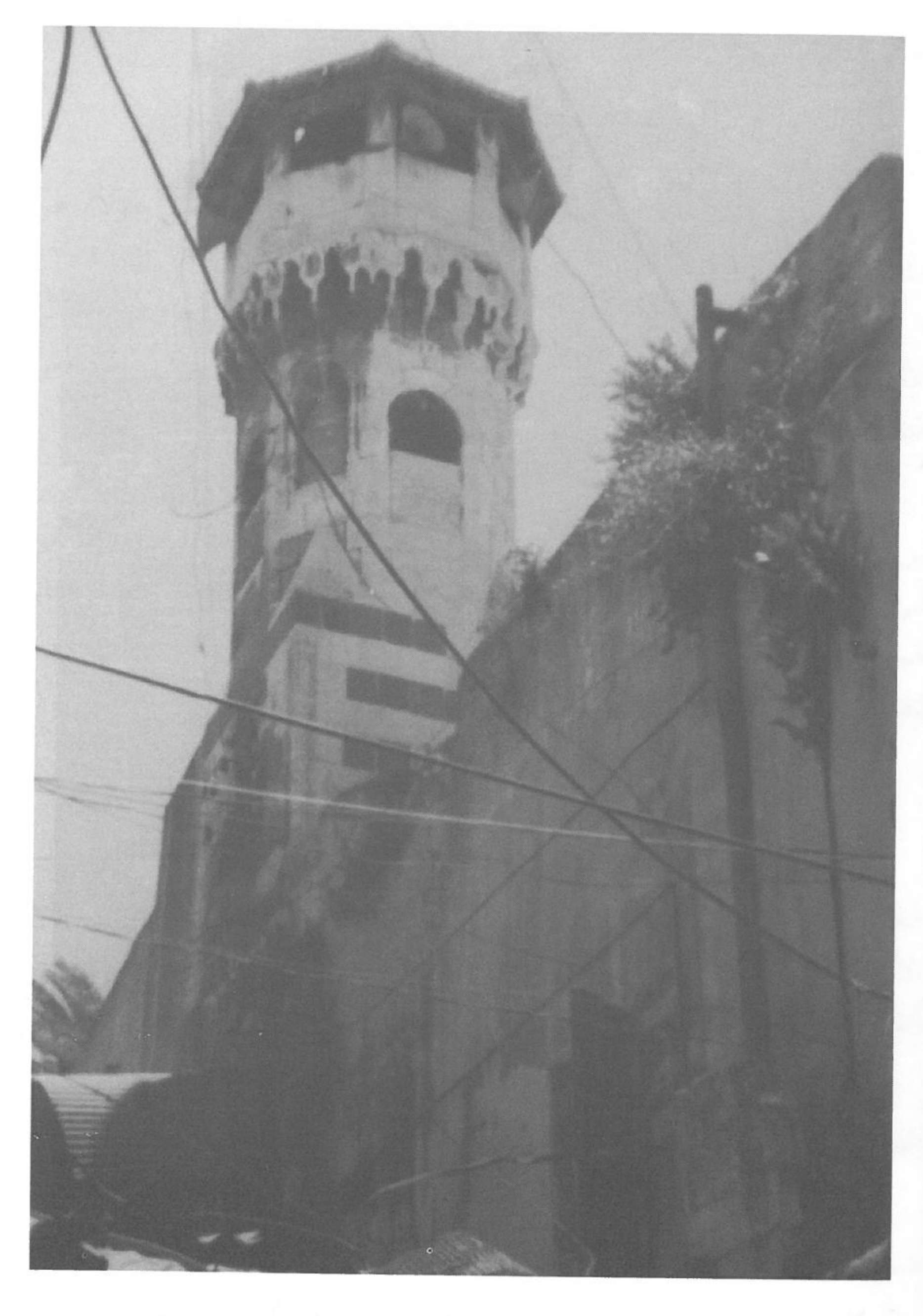
جامع الحجيجة



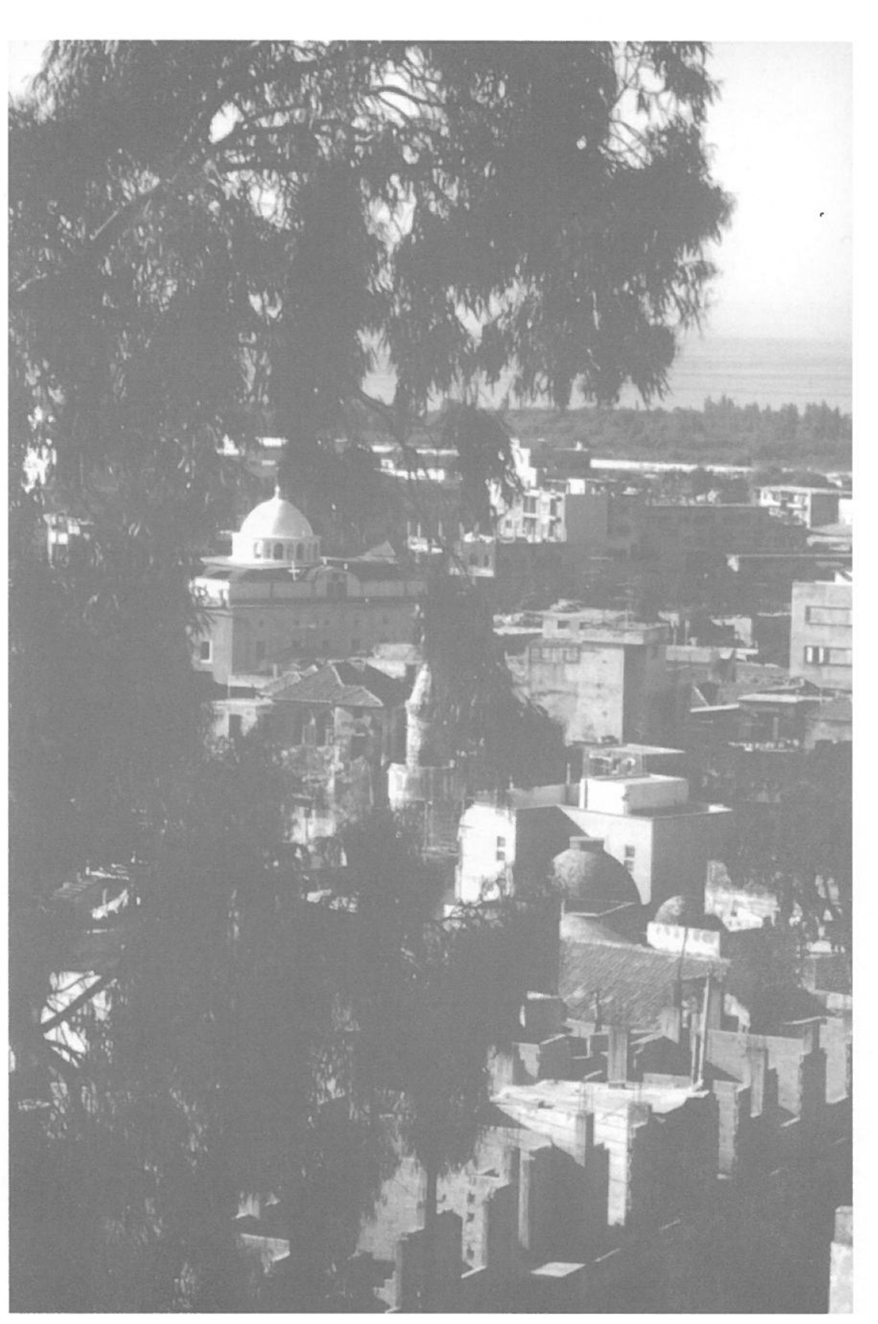




من خانات طرابلس: الخياطين والصابون المصريين (أرشيف وزارة السياحة)



جامع الطحّام



مشهد من طرابلس تلتقي فيه عصور متنوعة من التاريخ وآثار مسيحية وإسلامية (أرشيف وزارة السياحة)

ح ـ العمران في النيابة خارج مدينة طرابلس

١ ـ العمران في حصن عكّار:

وهو من بناء الصليبيين، ولم يلعب دوراً مهماً بعد ترحيل هؤلاء عن الشرق. وقد سقط بيد السلطان بيبرس في ٢٩ رمضان ٦٦٩ هـ/ ١١ أيّار ١٢٧١ م. وعيّن السلطان حاكماً على عكّار، كان خاضعاً للحاكم العام في حصن الأكراد، وقد أمر الأخير بترميم الجامع، وكلّف حاكم عكّار بالإشراف على التنفيذ(١٣١).

هذا كل ما نعرفه عن الموضوع بخصوص عكّار، سوى ما ذكره عز الدين بن شدّاد، بأن السلطان بيبرس جدّد بحصن عكّار عمارة قلعته، وزاد في أبراجها، وبنى فيها جامعاً، وكذلك بنى بربضها جامعاً ومساجد. وجدّد خان المحدثة، وكان قد تهدّم ورتّب فيه خفرا وأسكنهم أبراجاً، رتّب فيها الحمام لنقل الأخبار بما يتجدد للمسافرين(١٣٢).

٢ ـ العمران في حصن الأكراد:

عرف هذا الحصن بأسماء عديدة خلال العصور التاريخية. فأطلق عليه العرب اسم «حصن الأكراد»، وكان يعرف قبل ذلك بحصن «السفح» أو «سفح الأكراد». واشتهر عند الفرنجة «بحصن الاسبتارية» وعند الأوروبيين «بحصن الفرسان» (Crac des chevaliers) وبـ «قلعة الحصن»(١٣٣).

وهذا الحصن من بناء الصليبيين، ولم يلعب دوراً مهماً بعد ترحيلهم من الشرق.

كان سقوط حصن الأكراد بيد السلطان بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م) في ٢٥ شعبان سنة ٦٦٩ هـ/ ٨ نيسان ١٢٧١ م. ونسبة الأكراد إلى الحصن عائدة إلى سكن الأكراد قربه وفيه على يد ابن مرداس صاحب حمص، وكان من قبل يسمّى «حصن الصفح»(١٣٤).

بعد فتحه على يد المماليك عيّن صارم الدين قايماز حاكماً على الحصن إلى حين وفاته في عام ١٢٧٤ م. وفي عام ١٢٨٥ م، كان جلبان الطباخي حاكماً عليه. وقد عمل المماليك على إعادة ترميمه، وكلّف السلطان بيبرس بذلك كلا من عز الدين أيبك الأفرم وعز الدين أيبك الشيخ ابتداء من أيلول ١٢٧١ م. ثم تلت ذلك محاولتان للترميم، كما تدلّ النقوش على ذلك. فرمّم أحد الأبراج في ١٢٨٥ م على يد الحاكم بلبان الطباخي، كما رمّمت بدنة على عهد السلطان الملك الناصر محمد. وعلى عهد بيبرس، بني أو الأصح رمّم برجان ونقشت أسود ونقوش وجعل الحصن مقراً لنائب السلطنة[١٣٥] وحال الظاهر بين الحصن والمدينة بخندق[١٣٦]، وفيه حامية كبيرة[١٣٧].

بعد رحيل الصليبيين فقد الحصن أهميته، ولأنه يقع بعيداً عن الغزوات، أضحت المدينة المحيطة به، بلدة من دون أهمية[١٣٨].

٣ ـ العمران في بلدة حصن الأكراد:

ومن الآثار العمرانية المملوكية في بلدة حصن الأكراد، نجد الآتي:

ـ الجامع الظاهري:

وهو كنيسة مسيحية عند أقدام الحصن، حوّلها بيبرس إلى جامع بعيد الفتح مباشرة. كما عيّن للمدينة وللقلعة قاضياً. وعلى عهد السلطان محمد ابن قلاوون بنيت مئذنة الجامع المربعة الأضلاع في سنة ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٤ م، كما يشير إلى ذلك النقش الموجود عليها[١٣٩].

ـ مدرسة (مكتب) بكتمر الابتدائية:

وقد أنشأها في عام ٧١١ هـ/ ١٣١٩ م بكتمر نائب السلطنة بحصن الأكراد في الزاوية الشمالية الشرقية من باحة الجامع، وبابها في الحائط الشمالي، ويشير النقش الموجود في بقاياها إلى أن بكتمر (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) الذي كان مسؤولاً عن الخزنة على عهد السلطان الملك الأشرف خليل، قد أنشأ هذا المكتب

وأوقفه لتعليم عشرة أيتام، القرآن والكتابة، وأقام وقفاً لذلك في بلدة كفرلاها من عمل تارين[١٤٠].

ـ أسواق:

بنى الظاهر بيبرس، بعد فتحه لحصن الأكراد، أسواقاً عدة في البلدة[١٤١].

ويشير نص وقف بكتمر إلى وجود سوق البزّ وسوق السمّانين وسوق الخضرية[١٤٢] كما تشير وقفية بيمارستان بكتمر إلى سوق البزّ وسوق السمّانين[١٤٣]. كما تشير أيضاً وقفية الحاجة مريم إلى سوق الخضرية[١٤٤].

ـ أفران:

ويشير نص وقف بكتمر إلى وجود فرن في البلدة[١٤٥].

ـ طواحين:

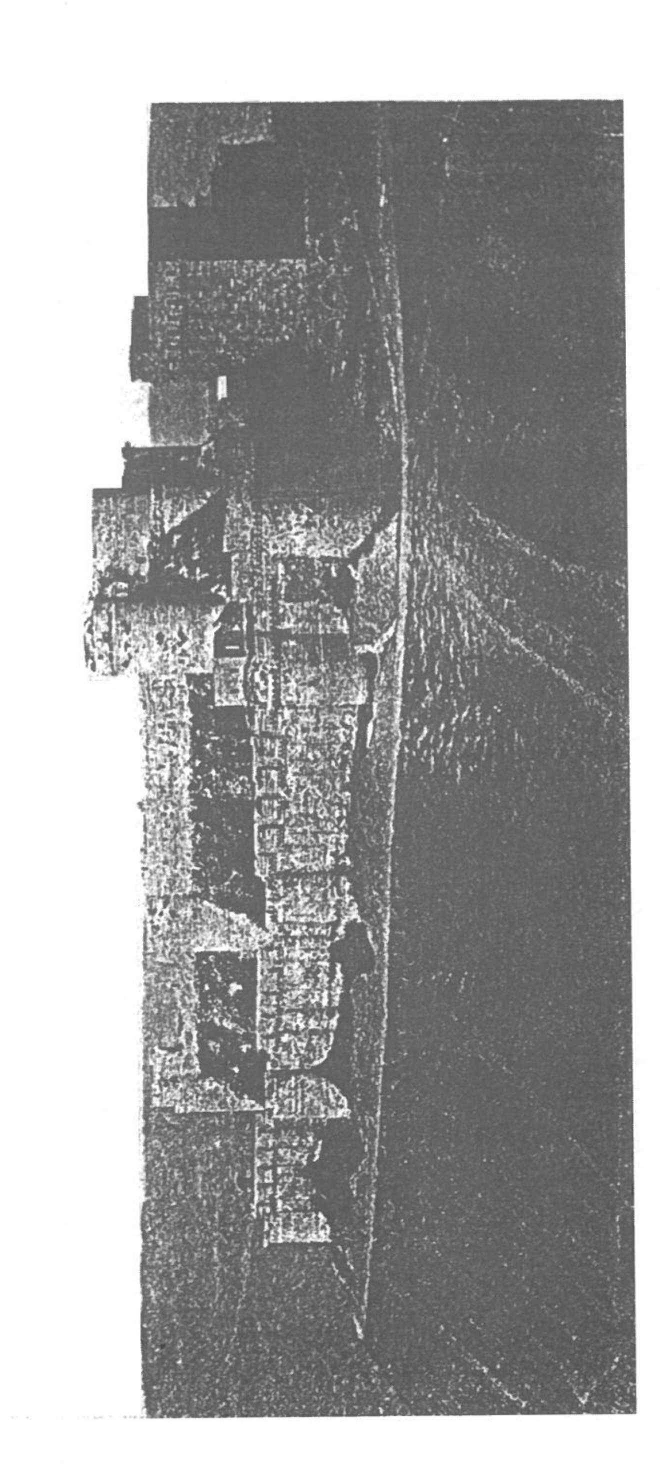
كما يشير نص الوقف المذكور إلى وجود طاحون الفتحية وطاحون نور الدين[١٤٦].

ـ خان:

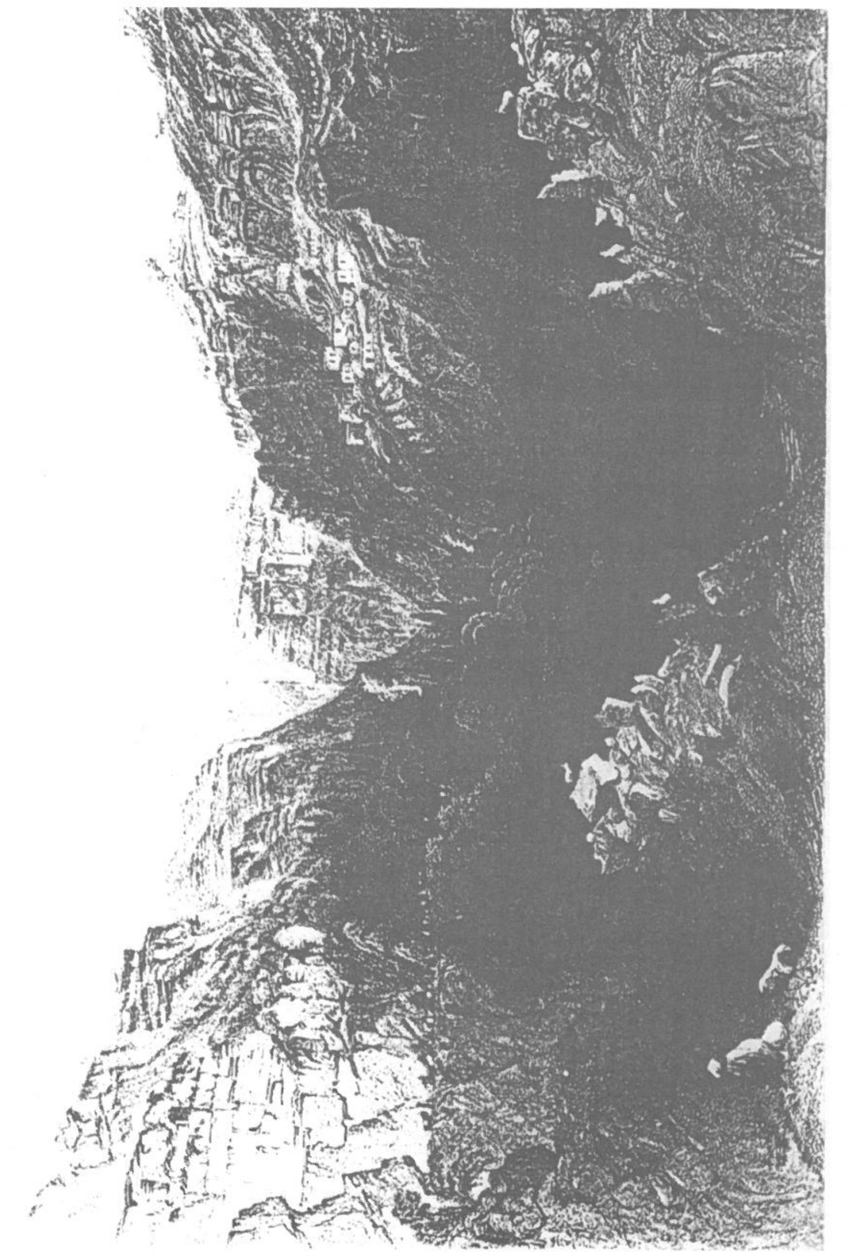
ويشير ابن شداد إلى بناء السلطان خانا كبيراً في حصن الأكراد[١٤٧].

ـ سكان حصن الأكراد:

ويمكن الاستدلال إلى حدّ ما على نوعية السكان في حصن الأكراد وجواره من خلال الكلام على فتحه. فالروايات تشير إلى أن المماليك قتلوا عند فتح الحصن، من فيه من الاسبتارية وأسروا الجبليين الذين شاركوا في الدفاع عن الحصن وعفوا عن الفلاحين لعمارة البلاد[١٤٨].



حصن الأكراد



وادي قاديشا في القرن التاسع عشر

د ـ الوضع العمراني في باقي نيابات طرابلس وولاياتها (جبة بشراي، جبله، اللاذقية وغيرها)

لقد تعرّفنا إلى ما كانت عليه أوضاع حصن عكّار وحصن الأكراد في مطلع الدولة المملوكية، ولكننا لا نعرف الشيء الكثير عمّا كانت باقي أرجاء هذه النيابة، بقطع النظر عمّا ذكرناه عن العمران في جبّة بشراي في معرض كلامنا على الموازنة.

ويخبرنا ابن الجيعان عن وضع بعض النواحي الأخرى من نيابة طرابلس في تقريره عن رحلة السلطان قايتباي في عام ١٤٧٧ م إلى بلاد الشام ومنها نيابة طرابلس، فيذكر بأنه تكثر في قرية اليمّونة أشجار الكمثري، وبأن الطريق منها إلى قرية الحدث في جبّة بشراي إلى طرابلس صعبة جداً، وهو لا يذكر شيئاً مهما عن مدينة طرابلس، سوى الغاء السلطان للمكس على الدبّاغين المذكور نصّه في باب المكوس من هذا البحث.

ومن طرابلس تمرّ الرحلة على جسر ارطوسية على نهر البارد قرب طرابلس، والبعيد عنها مسافة محطة بريد ونيّف. وتتوقف الرحلة قليلاً عند انطرسوس والمرقب وبانياس فتعرّف إنها قرى[١٤٩]، وهذا ما يؤكد إلى حدّ ما ان هذه البلدات لم تتطور بعد قرنين من الحكم المملوكي، بل بقيت محافظة على طابعها الريفي برغم أن بعضها كان مركزاً لنوّاب نائب طرابلس.

وتستوقفنا جبله، حيث مقام إبراهيم بن أدهم، وهو من المزارات الإسلامية المعتبرة، فهي، على حدّ وصف ابن الجيعان لها، بلد صغير وأهله على حدّ زعم الكاتب «كالبهائم» وضعهم الإجتماعي والعقلي متخلّف جداً على ما يبدو، لأنهم لا يعرفون الهجن الرواحل ولم يروها من قبل[١٥٠]. وفيما لو صحّت الرواية، لأن قائلها ينطلق من خلفيات دينية معادية، لربما، لمذهب أهل هذه البلاد، فقد كانت البلاد منعزلة على نفسها وأهلها لا يختلطون كثيراً بالناس، لأنهم من الرافضة الذين يخشون الاضطهاد في حال اتصالهم بالحواضر الإسلامية السنّية.

ولعلّ الكلام المنسوب إلى أهالي جبله، الذي يثير استهجان ابن الجيعان، يصبّ في بعض معتقدات الشيعة الرافضة.

أهم ما نجده من معلومات عن العمران في الأجزاء الشمالية من نيابة طرابلس، في أواخر دولة المماليك، هو ما نجده عن حالة اللاذقية. فقد كانت بناءً عظيماً، بها دكاكين بعضها عامر وآخر خراب من بناء الروم، قلاعها الثلاث خربة. أبنية المدينة عالية ولها برجان، ولها سلسلة عظيمة لإغلاق المرفأ، جدّدت على أيام الظاهر (لعل المقصود به الظاهر برقوق) وجقمق. وميناء اللاذقية يتسع لسبع مراكب كبار، وبها حمامات أيضاً بعضها عامر والآخر خراب. وفي المدينة تجار، يبدو أنهم على جانب من اليسر لأن لديهم كتّاباً يعملون في خدمتهم. وفي المدينة طاحون على الهواء، استخلصه أحدهم من تقنية الفرنج، وهو يعمل، كما يذكر النصّ، على عادة طواحين الفرنج، وانتاجه يصل ليلاً نهاراً إلى اثني عشر اردباً[١٥١].

والمعلومات الواردة أعلاه توضح أن العمران في اللاذقية لم يكن متطوراً، كما كانت عليه الحال في مدينة طرابلس. فالمدينة تحافظ على بقايا العهد الصليبي، ولا ندري ما إذا كان الخراب، في الحوانيت والحمامات، ناجماً عن الواقع المتردي اقتصادياً وسياسياً، وعن الهجرة السكانية من المدينة من مطلع القرن الخامس عشر، هذا، برغم وجود تجارة عامرة أبرز مظاهرها وجود خواجات (تجار) ميسورين، أم أنه استمرار لحالة المدينة بعد طرد الصليبيين منها.

ويذكر إبن بطوطة انه بخارج اللاذقية يوجد دير يعرف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق، وكلّ من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخلّ البكر[١٥٢]، ونظن أنه تهدّم في زلزال ١٤٠٩ م[١٥٣].

وفي ١٢ شعبان ٨٢٥ هـ/ ١٤٢١ م بنى الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله النوروزي كافل المملكة الطرابلسية المدرسة الإينالية الملحقة بالجامع الكبير المنصوري[١٥٤].

واشتهر باللاذقية الموسيقي محمد بن عبد الحميد اللاذقي (ت ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م)، صاحب «الرسالة الفتحية في الموسيقى». ومن مؤلفاته أيضاً «زين الألحان في علم تأليف الأوزان» و «زبدة البيان» في المنطق[١٥٥].

ويذكر هاشم عثمان في دراسته للأبنية والأمكنة الأثرية في اللاذقية، وجود كنيسة صغيرة للأرمن بنيت عام ١٢٥٤ على يد الحجاج الأرمن الذين بنوا إلى جانبها خاناً لا يزال موجوداً ويستعمل اليوم مدرسة[١٥٦].

ويذكر ابن أيبك أن الناصر بن قلاوون بنى جامعاً في ربض المرقب[١٥٧].

ثالثاً: هل من مدن في نيابة طرابلس؟

التقليد التاريخي في لبنان وسوريا وفلسطين يميّز تراتبية محددة على صعيد التجمعات السكانية التي تنطلق من المزرعة إلى القرية فالقصبة أو البلدة إلى المدينة. والبلدة هي عبارة عن مدينة صغيرة لها وظيفة إدارية واقتصادية محلية في مركزية أجهزة التبادل.

ولكن ما هي شروط قيام المدينة أو تحوّل البلدة إلى مدينة؟ وما هو المعيار لذلك؟ وبالتالي هل كان يوجد مدن ضمن إطار نيابة طرابلس؟ وأين تبدأ المدينة وينتهي الريف؟

الشائع في النظريات التقليدية المبسّطة، هو التغني بأن المدينة هي عكس البادية، انطلاقاً من التقسيم الشائع بأن المجتمع الجاهلي كان ينقسم إلى بدو وحضر.

ولكن هذا ليس بالأكيد، فالبادية بعد الإسلام انتشرت داخل التجمّعات المدنية المستحدثة حاملة إلى المدينة استمرارية نظمها الإجتماعية وعاداتها وتقاليدها بحيث لا توجد حدود اجتماعية وذهنية فاصلة بين الاثنين.

واليوم تجتهد المدارس الجغرافية بتحديد المدينة وتختلف فيما بينها.

فعدد السكان هو المؤشر الأول، ونسبة الألفي ساكن هو الحدّ الأدنى. ويقول «بوجيه غارنيه» بأنه يمكن الكلام على سكان مدنيين عندما يبلغ مجموع الساكنين في مجموعات سكنية كحدّ أدنى ٢٠٠٠ نسمة، شرط أن يكون في التجمعات التي تنقص عن ١٠٠٠٠ وعدد الذين يعملون في الأرض لا يتجاوز ٢٥٪. وفوق ١٠٠٠٠ يمكن اعتبار التجمع مدنياً[١٥٨].

ولكن هذا التحديد المعاصر، المحدد بعدد السكان، يمكن أن ينسحب على التاريخ القديم حيث كانت تقوم المدن الكثيرة، ولا يمكن أن ينطبق على القرون الوسطى حيث كانت الحضارة بشكل عام ريفية في الشرق كما في

الغرب، باستثناء بعض العواصم الكبرى التي عرفتها الدولة، ثم الدويلات الإسلامية.

لذلك، فلا يجوز أن يكون العدد هو الأساس بل مجموعة صفات إدارية ووظيفية وشكل خارجي يميّز المدينة عن الريف بحيث تبدو المدينة غير القرية، برغم أن أشكال ونظم الحياة الإجتماعية في المشرق واحدة في الحضر وفي الريف، علماً أنه من الصعب إيجاد تحديد واحد جامع لمفهوم المدينة الذي يتبدّل مع الأزمنة وتبعاً للحضارات.

وعلى هذا الأساس فالحضارة الإسلامية ـ العربية خلقت تراتبية أشرنا إليها في مطلع كلامنا، تذهب من المزرعة إلى المدينة.

هذه الحضارة لا تميّز بين القرية أو المدينة على أساس ضرائبي أو الشخصية القانونية، ولا على أساس التقسيم الداخلي. ففي القرية، كما في المدينة، التقسيم إلى أحياء واحد، وهذا التقسيم مرتبط إلى حدّ كبير بالتركيب العائلي، وأحياناً كما في بعض القرى (المارونية مثلاً)، كان عدد السكان في الأحياء لا يتجاوز أخرى في المدن.

وإلى هذا التنظيم المدني المبني على الأحياء والمشترك بين المدينة والقرية، نجد أن الفرق ليس كبيراً على صعيد تنظيم المساحة المدنية والهندسة والشكل الخارجي، بحيث أنه لا فرق كبيراً بين القرية وحي من أحياء المدينة، كما أنه قد نجد في القرية ما نجده في المدينة، من حمامات وجوامع وأسواق وأبنية دينية (جوامع أو كنائس).

كما أن اعتماد مبدأ النشاط الإقتصادي كمعيار. ليس أكيداً، لأن بعض القرى كان يعرف النشاط الحرفي والتجاري (قرية الحدث في الجبّة مثلاً).

بالنسبة للمستشرقين، الإسلام يحدد المدينة على أنها تجمّع فيه جامع وحمامات وسوق ومدرسة[١٥٩].

هذا التحديد قد نجده في بلدان «لبنان» و«سوريا». وهكذا فالمدينة في المشرق على عهد المماليك، على الأقل، هي بلدة كبيرة تكثر فيها الجوامع والحمامات والأسواق والمدارس.

رابعاً: الوظائف الأربع الأساسية للمدينة الشرقية ـ الإسلامية

لكلّ مدينة إسلامية ـ شرقية، حسب رأي «هاينس غاوبه» أربع وظائف أساسية: سور المدينة، طرقاتها، سوقها، أحياؤها السكنية(١٦٠).

أ ـ السور

سور المدينة هو العلامة المميّزة الخارجية لكلّ مدينة شرقية إسلامية، وله على الغالب شكل أساسي غير منتظم ينعكس فيه نموّ المدينة وانكماشها. وهو يحتوي على عدد غير محدد من الأبواب. أما القلعة فتقع داخل السور، وترتبط غالباً مباشرةً بخارج المدينة، وهي تعتبر مقرّ السلطة الحاكمة(١٦١).

هذا المبدأ ينطبق على مدينة طرابلس في العهد المملوكي، إذ من المعروف أنه كان لها، حسبما يذكر العمري، «أسوار جليلة»، ولم تكن المنازل المؤلفة من عدة طبقات تشكل فقط سور المدينة حسبما يذكر د. تدمري الذي يعود خطؤه إلى قراءته لفظة «أسوار» في نصّ العمري، الذي يدرجه في ملحق كتابه «أسواق»، مما قاده إلى هذا الإستنتاج الخاطئ(١٦٢).

فلقد شكلت طرابلس بمنازلها كتلة متراصة من البيوت وعلى طرفها بيوت متلاصقة متراصة تزيد جدرانها الخارجية عن المتر وتنفتح على الخارج ببوابات تربط داخل المدينة بخارجها، فتفتح نهاراً وتقفل ليلاً وتحميها أبراج.

١ ـ في الجنوب: بوابتان: بوابة الحدادين في نهاية سوق الحدادين التي عرفت أيضاً بإسم باب بيروت وقد أزيلت بعد عام ١٩٥٨ والثانية بوابة الرمل أو الباب الأحمر، وكانت ملاصقة للزاوية القبلية لجامع أرغون شاه في محلّة السيفي أقطرق(١٦٣).

٢ ـ في الشمال: نجد باب المسلخ أو باب الحديد بجوار جامع البرطاشي،

كما نجد باب التبانة بين جامع محمود بك السنجق ومدرسة القاضي عمر(١٦٤).

٣ ـ في الغرب: أبواب غير محددة باتجاه التل والمرج والمينا(١٦٥).

٤ ـ في الشرق: باب تحت القلعة بين المدرسة العجمية والمدرسة الأشرفية(١٦٦).

وفي دراسة حديثة للدكتور تدمري استناداً إلى إحصاء ١٥١٩ العثماني يعطي أسماء الأبواب الآتية: الحجّارين ـ دار السعادة ـ باب الحديد ـ عقبة الحمراوي ـ الدبّاغة ـ القلعة ـ الطواحين ـ الأمير محمد ـ الغنشاه ـ التبانة ـ باب حلب ـ باب بيروت(١٦٧).

ولا بدّ من التذكير، بأن هذه البوابات وصلتنا بعد اكتمال عقد بناء مدينة طرابلس بشكلها شبه النهائي. ولكن متى قامت؟ وهل سبق إنشاؤها قيام المدينة، أو جاءت نتيجة تصميم مسبق للمدينة؟ فهذه أسئلة تقتضي المزيد من التحقيق والتقميش.

وإضافة إلى البوابات كانت تفتح في الحيطان نوافذ صغيرة عند المنعطفات ونهاية الممرات والأزقة، داخل المدينة، وفوق المداخل، للحماية والمقاومة. وعرفت هذه النوافذ باسم وظيفتها «مرامي السهام» للدفاع عن المدينة من الغزوات الخارجية. وكان لهذه النوافذ دورها في صدّ غزوات الفرنج(١٦٨). ولعلّ هذه النوافذ الدفاعية هي استمرارية للفن الصليبي الذي كان قائماً في الأبنية التي خلّفها هؤلاء في طرابلس بعد رحيلهم(١٦٩).

وإذا صحّ أن مدينة طرابلس كانت من دون أسوار، فمن الصعب تحديد مساحتها. ولكن استناداً إلى تحديد مقابرها القديمة ومسالخها ودباغاتها التي يفترض أن تكون على حدود المدينة، يرجّح الدكتور عبد النور المساحة ما بين ٦٠ و٧٠ هكتاراً(١٧٠). وبما أنه لا يوجد لدينا معلومات عن كثافة السكن، فلا يمكن تقديم أرقام نظرية شبه أكيدة عن عدد السكان.

ب ـ طرقات المدينة:

تفضي الطرقات الممتدة من المناطق البعيدة، عبر بعض الأبواب، إلى المدينة. ويبدأ تشكّل الضواحي على أكثر هذه الطرقات حيوية، حيث تنشأ مراكز اقتصادية ثانوية، وعلى مقربة من السور في الغالب. وتتابع هذه الطرقات البرّية مسارها داخل الأسوار بوصفها المحاور الأساسية للاتصالات ضمن المدينة. ويقع الجامع الكبير عادة على محور المدينة الرئيس، وتقع في المنطقة المحيطة بالجامع الكبير مباني الإدارة الحكومية في الغالب، ومدرسة واحدة هامة على الأقل. ويجذب تيار المارة الذي يكاد لا ينقطع في محاور المدينة الرئيسة فعاليات التجارة والصناعات اليدوية. وهكذا تعجّ المحاور الرئيسة بالمحلات التجارية والمشاغل المهنية التي يتألف منها سوق المدينة[١٧١].

هكذا كان واقع المدينة الإسلامية بشكل عام. أما في طرابلس، فقد كانت المدينة متكتلة على بعضها تفصل بين أحيائها دروب متعرجة متقاطعة متشابكة ومتوازية، ضيقة تمرّ تحت قناطر وعقود وأبنية.

ولا نعرف ما إذا كان لطرابلس تصميم مسبق لإنشائها. وهل كان هناك نقطة انطلاق رئيسة، كالجامع الكبير مثلاً، وهل كان هناك غائية معينة لخلق التنظيم المدني في طرابلس؟

هناك عدة فرضيات حول بناء المدينة الإسلامية، رأينا جزءاً منها في إشكالية البحث، وفي المقدمة أعلاه، وهناك فرضية محلية للدكتور تدمري تقول بأن المماليك ابتدعوا نظاماً هندسياً بارعاً لحماية المدينة، باتباع نظام المتعرّج في الدروب التي تقوم إلى جوانبها دور معينة بالحجارة الرملية الثقيلة ذات الجدران الضخمة لتصبح بمثابة خندق طويل ومتشعب، يغطيها سقف واق من المساكن، وقد شمل هذا النظام المعماري معظم أحياء المدينة. واستعاض المماليك عن السور الذي يحمي المدن عادة بجدران من المباني المتينة حول الأسواق والأحياء السكنية[١٧٢].

يصف الدكتور تدمري واقع المدينة كما وصلت إليه بعد مئات السنين من عملية الإعمار، وكلامه لا يعني أنه كان للمدينة تصميم مسبق أوصلها إلى ما وصلت إليه. فلذلك، من غير الجائز الكلام على نظام هندسي بارع ابتدعه المماليك. فمدينة طرابلس يفترض أن تكون قد نشأت كما نشأ غيرها من المدن الإسلامية، كما تبرهن ذلك، الدراسات العلمية عن المدينة الإسلامية، التي أشرنا إليها في مطلع الكلام على المدينة. ونظام بنائها يتناسب في أحيائها وأسواقها وأبنيتها وانغلاقها على نفسها مع روحية النظام العائلي المنغلق على ذاته المتلاصق بشكل متواتر.

ج ـ أسواق المدينة:

في المدينة الإسلامية عامة، تغطي أجزاء السوق الموجودة في المحاور الأساسية، سقوف خشبية أو حجرية أو سقوف من القماش المتين السميك على الأقل وذلك لحماية الزبائن والتجّار والصنّاع من حرارة الشمس والأمطار. ويكون زحام المارة على أشده في مركز السوق، الذي يقع غالباً قرب الجامع الكبير، وهنا تباع أثمن البضائع والأقمشة والحلي وما شابهها. أما المحلات التجارية التي تحتوي بضائع أرخص، فتقوم على أطراف السوق. وتوجد عادة قرب أبواب المدينة الدكاكين ومشاغل الحرفيين، التي تلبي بعروضها احتياجات الزبائن الريفيين. أن السوق هو أكثر السمات التي تميّز المدينة الشرقية ـ الإسلامية. ولا نجد ما يمكن مقارنته به لا في العصر الذي سبق الإسلام ولا في الحضارات الأخرى. فهو مركز الاشراف الإقتصادي على المدينة وريفها. ولقد اجتمعت هنا تجارة الجملة والمفرّق والحرف اليدوية ومؤسسات الإقراض والسمسرة بوصفها كلا منظماً في مجمّع عمراني. وتقوم خلف الدكاكين والمشاغل المهنية الخانات وهي مقرّ تجارة الجملة والتجارة الخارجية بالإضافة إلى مجمّعات المهن اليدوية والمخازن والمكاتب. ولا يوجد في «سورية»، مثل الكثير من الأقطار الإسلامية الأخرى، بيوت أو دور للسكن داخل السوق. فالسكن والنشاط الإقتصادي منفصل أحدهما عن الآخر تماماً. وتتوزع الأحياء

السكنية في سائر أرجاء المدينة، داخل وخارج الأسوار وكانت في السابق منفصلة بعضها عن بعض بواسطة أبواب الأحياء[١٧٣].

ولا توجد لدينا معلومات كافية، عن مدى انطباق هذا الواقع المدني الإسلامي العام على طرابلس، وعلى مدى ما يجري فيها من بعض مظاهره. جلّ ما نعرفه عن العهد المملوكي، أنه كان لطرابلس «أسواق جليلة» على ما يذكر ابن فضل الله العمري[١٧٤] المتوفي في منتصف القرن الرابع عشر.

ومن الأسواق التي يرد ذكرها في النصوص المملوكية نجد: سوق العطّارين، سوق الدبّاغين، المسلخ، سوق الحلاوويّن، السوق الشرقي، سوق السلاح، سوق الحدّادين، سويقة القاضي[١٧٥]. كما نجد أسواقاً أخرى يمكن استقراؤها من استمرارية وجودها واستمرارية تسميتها وهي: سوق البازركان، السوق الجديد، سوق النحّاسين، سوق الصيّاغين المعروف قديماً «عديمي المسلمين»، سوق العطّارين، سوق الكندرجية، إلخ...

د ـ الوحدات الإجتماعية ـ الإدارية في المدينة

١ ـ الأحياء

أبرز أحياء طرابلس هي اليوم: السويقة، الزهرية، الحديد، الرمّانة، النوري، القبّة، المهيترة، الحدّادين، بساتين طرابلس. أما الحارات والمحلات فهي: حارة النصارى، محلة اليهود، محلة التربيعة، محلة الصوّافين، محلة البحصة، محلة سويقة النوري، محلة الطرطوسي المعروفة أق طرق، محلة قبوة الحتة، محلة الدبابسة، محلة باب الرمل. أما الأزقة فهي: زقاق الرمانة قرب حمّام عز الدين، زقاق البرطاسية حيث مزار السيّدة للروم الأرثوذكس، زقاق البيروتي في محلة النويري، زقاق مصبنة العويضة، زقاق الحمّص في محلة الحدّادين، زقاق الكنفاني في محلة الحدّادين، زقاق الذوق قبالة الخانقاه.

وإذا عدنا إلى السجل الأول من سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس (١٦٦٦ ـ ١٦٦٧ م)، لوجدنا أن مدينة طرابلس قد قسمت في منتصف القرن السابع عشر إلى ٢٦ محلة أو حارة هي: التبّانة، ساحة عميرة، قبة النصر، اليعقوبية، الجسرين، باب الحديد، التربيعة، حجّارين النصارى، حجّارين المسلمين، سويقة النوري، الصبّاغة، القنواتي، أق طرق، زقاق الحمص، سويقة الخيل، مسجد الخشب، المزابل، شيخ فضل الله، العوينات، الرمانة، الاى كوز، الناعورة، اليهود، القواسير، عديمي المسلمين، عديمي النصارى[١٧٦].

استناداً إلى دراسة د. عبد النور كانت المدن الإسلامية ـ العربية في العهد العثماني مقسومة إلى عدة أجزاء وكلّ جزء إلى حي أو محلة أو صايح وكل حيّ إلى حارة وكل حارة إلى دخلة أو أزقّة[١٧٧].

ازدياد الأحياء والحارات في المدينة يعطي فكرة عن تفسّخ المدينة وعن تكتلها على بعضها في أجزاء منغلقة على ذاتها متراتبة متلاصقة. وهذا الحي أو الحارة الذي يشكل وحدة إدارية واجتماعية هو جزء من كلّ، أي من وحدة

المدينة. فالمدينة بشكل عام، كانت مقسّمة قطاعات، لأسباب اجتماعية من جهة وإدارية من جهة أخرى لحاجة السلطة إلى جمع الضرائب[١٧٨].

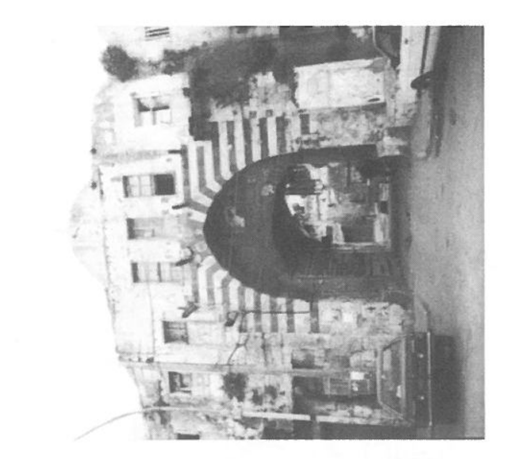
الحياة الداخلية في الأحياء تبدو مستعصية الدراسة في سوريا ولبنان ومصر[١٧٩] تقليدياً، خاصة في العهد العثماني، حيث لكل حي شيخ الحارة، من العائلات النبيلة، معيّن من قبل السلطة والشعب، يسانده إمام الجامع ومجموعة من الأعيان بينهم أبرز «القبضايات» والمسنّون في الحي. وإذا كان للحارات شيوخها فقد يكون لها شيخ مشايخ يمثلها جميعاً في حال كانت من طائفة واحدة دينياً أو عرقياً. وكانت وظيفة الشيخ متنوعّة: جمع الضرائب، حفظ الأمن، لعب دور الوسيط بين السلطة والشعب[١٨٠].

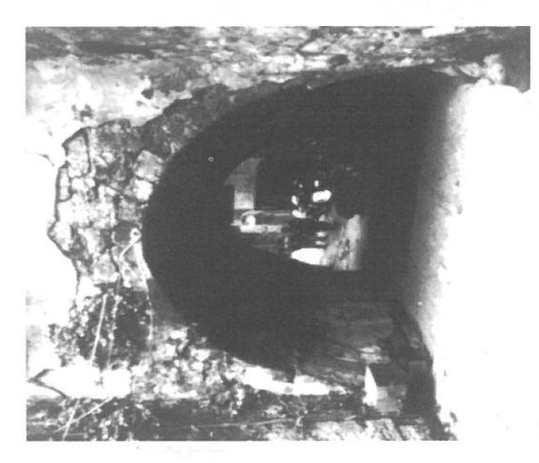
الخصوصية الأثنية أو الإقليمية كانت تساهم في تماسك الأحياء وإعطائها روحاً جماعية تخلق حالة من الحذر تجاه الأحياء الأخرى. فالأقليات تنضوي عادة في حي ما[١٨١]. وهذه الأقليات، في مدينة طرابلس، قد تكون عرقية كالأكراد والتركمان، أو اقليمية: مصرية، مغربية. أو دينية كالنصارى واليهود (محلة اليهود، عديمي النصارى). والدليل على وجود أقليات إقليمية في طرابلس تسمية أحد الجوامع باسمها (جامع المكناسي) للمغاربة، واحد الخانات باسم المصريين وآخر باسم العجم.



١ ـ سويقة الخيل
٢ ـ مسجد الخشب
٣ ـ العوينات
٤ ـ زقاق الحمص
٥ ـ أق طرق
٦ ـ الاى كوز
٧ ـ القنواتي
٨ ـ الحجّارين
٩ ـ الصباغة
١٠ ـ عديمي المسلمين
١١ ـ عديمي النصارى
١٢ ـ الرمانة
١٣ ـ باب الحديد
١٤ ـ اليعقوبية
١٥ ـ المزابل
١٦ ـ الجسرين
١٧ ـ الناعورة
١٨ ـ القبة
١٩ ـ التبانة
٢٠ ـ اليهود

أحياء طرابلس، نقلا عن زيادة، الصورة التقليدية للمجتمع المديني.







طرابلس القديمة (أرشيف وزارة السياحة)

ـ التمحور الطائفي:

من الواضح أنه كان في طرابلس حي للنصارى قائم بهم، كما كان معروفاً ذلك في العهد العثماني، كما كانت توجد محلة لليهود حيث يقع خان العسكر.

وفي دراسته عن العصر المملوكي، يرى لابيدوس أنّ المسيحيين واليهود كانوا منتشرين في المدينة، وأنّه من الأنسب القول بأنهم كانوا يعيشون في شوارع خاصة مجاورة لشوارع المسلمين، دون أن يعني ذلك أنهم كانوا في «غيتو»[١٨٢].

والصورة قد تتوضح أكثر بالرجوع إلى العهد العثماني حيث تظهر الطوائف الدينية وكأنها معزولة في أحياء، وهذه العزلة اتخذت طابعاً خاصاً في القرن التاسع عشر عندما انفجرت الصراعات الدموية الطائفية، وأضحت هذه العزلة ما يشبه «الغيتو» فعلاً. ولكن هل يمكن إرجاع هذه الحالة الإنعزالية إلى أسباب ترجع مئات السنين إلى الوراء؟ لا يوجد جواب صريح على ذلك، من دون أن يعني ذلك أن ما جرى في القرن التاسع عشر هو النتيجة الحتمية للتطورات التي حصلت في القرون السالفة.

والدراسات الإستشراقية عن القرن السادس عشر الذي يلي العهد المملوكي لا تتفق في الرؤيا. فبينما Hutteroth لا يرى في دراسته عن فلسطين أن التقسيم إلى محلة يتفق مع التقسيم الديني[١٨٣]، نرى كوهن يؤكد العكس[١٨٤]. ويلاحظ عبد النور بأن وضعية المسيحيين العرب كانت مختلفة في المدن عن الأقليات غير العربية وغير السنية.

واستناداً إلى الأرشيف العثماني العائد إلى إحصاء ١٥١٩. نجد أنه كان يوجد في طرابلس، ٢٦ محلّة أو حيّاً. هذه المحلاّت هي: جامع كبير ـ حارة النيني ـ زقاق الأكوز ـ سوق الطواقي ـ مسجد القرمشي ـ خان عديمي ـ سوق اسن دمور ـ سوقاق الطويل ـ سوقاق المصري ـ مسجد الخشب وسوقاق الخولي ـ حصن صنجيل ـ سوقاق شيخ علي ـ عوينات ـ شيخ فضل الله ـ خوري (أو

حوري) ـ باب المدينة ـ حجّارين (أو محّارين) ـ باب أق طرق ـ سوقاق الحمّص والملوخيّة ـ بين الجسرين ـ عقبة الحمرواي ـ الطواحين ـ ساحة الحمصي ـ جسر العتيق ـ النصارى المعروفة بتبانّة ـ يهودي.

يبلغ عدد السكّان فيها حسبما جاء في دراسة للدكتور تدمري: ١١٥٥ من المسلمين الذكور، ٢٩٨ من المسيحيين الذكور، ٩٠ من اليهود الذكور. فيكون المجموع ١٥٤٣ من الذكور. هذه الأرقام فيها تباين مع ما جاء في دراسة د. عصام خليفة حول الموضوع نفسه، بحيث أن عدد المسلمين هو ١١٨٣ والنصارى ٢٩٥، واليهود ٩٠. المجموع ١٥٦٨.

١٤ من هذه المحلات كان يسكنها مسلمون فقط، حي يسكنه النصارى، (محلة النصارى المعروفة بتبّانة)، حي يسكنه اليهود (محلة يهودي)، حي يسكنه مسلمون ومسيحيون ويهود (مسجد القرمشي) و تسعة أحياء مختلطة يسكنها مسلمون ومسيحيون (جامع كبير، سوق الطواقي، خان عيدمي، مسجد الخشب، سوقاق الخولي، حصن صنجيل، خوري، باب المدينة، حجّارين، ساحة الحمصي)[١٨٥].

٣ ـ الأحياء والجسم الحرفي:

كان لبعض الأحياء في المدينة طابع مهني مميّز. وأسماء بعض الحارات تشير إلى ذلك بوضوح: سوق البزركان، جسر اللحّامين، طريق الحدّادين، سوق العطّارين، سوق الصيّاغين، خان الصابون، سوق الكندرجية، خان الخيّاطين، سوق النحّاسين، ساحة الدبّاغين، خان الخيّاطين.

٤ ـ شرطة المدينة:

إضافة إلى المحتسب، الذي كان يلعب أحد ادوار «البوليس» في المدينة، كانت مسؤولية حفظ الأمن تقع تقليدياً على عاتق هيئتين: الأولى جند الحلقة والثانية الشرطة التي تأتمر حكماً بنائب السلطنة وبالقضاء. هذا، مع العلم أن والي المدينة هو صاحب الشرطة.

٥ ـ التماسك الإجتماعي:

ومن الأمور الطبيعية في المدينة الإسلامية، رؤية بيوت الأغنياء إلى جانب بيوت الفقراء، برغم أن بعض الأحياء كان وضعها أفضل من أحياء أخرى[١٨٦]، وهذا الأمر ينسحب أيضاً على طرابلس.

٦ ـ العلاقة بين الأحياء:

بشكل تقليدي، كانت الأحياء تقيم فيما بينها علاقة حسن جوار واحترام ومشاركة. ولكن في الاحتفالات الكبرى المشتركة، كالعراضة أو احتفالات الفرق الدينية، كان الاستئناس في العهد العثماني، برأي شبان الحي للمرور فيه من ضرورات الاحترام[١٨٧].

٧ ـ الغرباء في المدينة:

في وصفه لطرابلس، يقول بدر الدين الحلبي المتوفي في سنة ١٣٣٦ م، وكان قد أقام في طرابلس قرابة السنتين: «وهي برية بحرية، شامية ومصرية»[١٨٨]. وفي ذلك إشارة إلى وجود الغرباء، مع أخذ العلم بأن غرس الدين الظاهري، يفسّر «شامية مصرية» بحسن الهيئة[١٨٩].

ولكن، كان يصعب على الغرباء، الذين ليس لهم وضعية طائفية واضحة، أن يدخلوا في النسيج الإجتماعي، في المدينة الإسلامية ـ العربية عامة. ولأسباب محض اقتصادية، كان بإمكان الغريب، المكوث في المدينة وإقامة علاقات مع أهلها على أن يبقى على الحياد، ولهذا الإعتبار كانت الخانات تقوم في المدينة وتسمّى باسم الغرباء، وهذا ما نجده في طرابلس: خان المصريين، خان العجم، إلخ...

ويشرح هذه الحالة، المستشرق ـ المستعرب «دومينيك شفالية» بأن الخان يعزل الغريب ويغلق عليه، وبوظيفته التجارية يضعه في علاقات مع أهل المدينة. وهذا الوجه المزدوج يسمح له باستقبال الغرباء وبإدخالهم إلى المدينة مع وضعهم فيه على جانبها[١٩٠].

٨ ـ شوارع المدينة:

شوارع طرابلس كانت، كأكثرية شوارع المدن الإسلامية، مظلمة، ضيقة، تحيط بها حيطان كبيرة تدعّم المنازل التي تتوالى على جوانبها وتغطيها الأبنية في غالب الأحيان، وتكون أرضها مرصوفة بالحجارة.

ـ تنظيف الشوارع:

من كان يهتم عادة بتنظيف هذه الشوارع، وتأهيلها، الحاكم أم السكّان المستفيدون منها؟ لا يوجد جواب حول هذه النقطة. وقد يكون التنظيف والإنارة وإعادة التأهيل من واجبات السكّان والحانوتيّين.

وإذا كانت وثائق العهد المملوكي لا تجيب على ذلك، فالعهد العثماني يخبرنا بأنه كان في المدن السورية وفي طرابلس وحماه وزحلة جماعة من «السوادي» وظيفتها جمع الأوساخ، خاصة نفايات الحيوانات وبيعها لأصحاب البساتين لتسميد مزروعاتهم[١٩١].

ـ المجارير:

وكما في مسألة تنظيف الشوارع، كذلك في مسألة المجارير، النصوص المملوكية لا تفصح شيئاً عن هذه البنية التحتية الأساسية في صحة المدينة. فالرأي الشائع، حسب د. عبد النور، هو أنه في المدينة العربية، الشارع، هو المجرور[١٩٢].

لكن بالعودة إلى العمري، أحد مؤرخي الحقبة المملوكية، نجد أن هذا الرأي مفرط، إذ أنه يشير إلى أنه بُعيد بناء طرابلس صرفت المياه الأسنة منها[١٩٣] ولعلّ في ذلك إشارة إلى أنه كان يوجد في المدينة قنوات تقوم مقام المجارير.

٩ ـ الوضع الصحي:

وإضافة إلى ما ذكر أعلاه، فإن تنبّه المسؤولين إلى كثرة الوخم

والمستنقعات، وحلّهم لهذه المشكلة بعد استشارة رئيس أطباء دمشق، بإكثارهم للناس والدواب وصرف المياه وتجفيف الرطوبة وزرع الأرض، ساعد في جعل مناخ طرابلس صحياً. ولكن هذا الحلّ، لم يكن بإمكانه ردع عامل مناخي يشير إليه العمري، يؤثر في وخامة السكن، مردّه إلى مجاورة المدينة للبحر وما ينتج عن ذلك من رطوبة وتقلّص في الحرارة بسبب هبوط الهواء البارد في الليل من الجبال، مما يؤدي إلى تقلّب سريع في الحرارة يجعل الجسم عليلاً.

١٠ ـ الأحياء السكنية:

يوجد في الأحياء السكنية الكبيرة، في المدن الإسلامية عامة، كتتمة ضرورية للبيوت السكنية، منشآت عامة كالمسجد والحمّام والفرن والسبيل والمدرسة وسوق صغيرة (سوق الحي) لبضائع الاحتياجات اليومية التي يتطلب شراؤها من السوق الرئيسية وقتاً طويلاً، ويتم الدخول إلى البيوت السكنية من المحاور الرئيسية ضمن المدينة عبر محاور جانبية وحارات وأزقّة مسدودة. وسيشكّل الزقاق المسدود أصغر وحدة تنظيمية في المدينة أعلى من مستوى البيت. ولم يكن الزقاق المسدود يضمّ في العادة سوى بضعة دور سكنية. وكانت مداخل الأزقة المسدودة تنفصل قديماً عن باقي الحي بواسطة بوّابات يمكن إغلاقها[١٩٤].

خامساً: السكن والمساحة المدنية

السكن، في المدن الإسلامية ـ العربية، كان دائماً موضوعاً لدراسات متعددة منطلقاتها دراسات أثرية، هندسية وجغرافية.

منطلق هذه الدراسات يجعل منها أبحاثاً ساكنة بعيدة عن التركيب الإجتماعي الذي كان في أساس تكوينها والذي تعمل في الأساس لخدمته.

هذه الدراسات الهندسية ـ الأثرية، توصّلت إلى توضيح التصميم العام للمنزل وإلى وظيفة أجزائه ونوعية تزيينه، لكنها عجزت عن احتواء علاقته بالجماعة العائلية وتطوّر هذه العلاقة مع الزمن.

والكتب والدراسات الصادرة عن المدن اللبنانية ـ السورية وغيرها من المدن الإسلامية تعطي تفاصيل وصوراً ومجسّمات لهذه المدن ولأسواقها التي لا تزال موجودة فيها وفي الأرياف وللمنازل والجوامع والحمّامات والمدارس، وما إلى غير ذلك من آثار، كما أن بعضها مخصص للأرياف المحيطة بالمدينة. ولكن هذه الآثار الباقية من الماضي هي ما بقي من أبنية صلبة، جميلة، كبيرة وغنية. أما المنازل والأبنية العامة الصغيرة والفقيرة فقد زالت، وفي أفضل الحالات لم يبق منها سوى آثار إنشائها. ولذلك فما بقي منها، لا يعبّر بالفعل عن واقع الحياة المدنية كما كانت.

ولدراسة مسألة السكن، لا بدّ من الرجوع إلى المراجع التي قامت بمسح للأبنية العامة. وفي إطار طرابلس نجد هذا المسح في:

١ ـ كتاب سوبرنهايم،

٢ ـ مؤلفات الدكتور عمر تدمري.

أ ـ السكن والعائلة:

من البديهي القول بأن السكن يُجسّد التركيب الأساسي للمجتمع، أي التركيب العائلي، الذي تؤكده الاستمرارية العائلية في المجتمعات العربية منذ مئات السنين. علماً بأن العلاقة بين المجتمع والسكن لم يكن صورة متكررة عبر الزمن، بل كان خاضعاً لمقتضيات الظروف المعيشية الإقتصادية والتقلبات الإجتماعية. فاليسر كما العسر يؤثران بشكل حتمي على المنزل، لا كنمط هندسي بل كوظيفة اجتماعية. فالسكن يتراجع مع الأزمات ويزداد كثافة مع النمو الديمغرافي، والعلاقات بين الطوائف والمجموعات البشريّه تفرز تجمعات متماسكة تسعى للدفاع عن ذاتها.

ولئن سكتت المصادر في الكلام على العلاقة بين السكن والعائلة في إطار طرابلس، فإننا نُرجّح أن هذه الظاهرة التي تكلّمنا عليها أعلاه، تنطبق على المدينة الإسلامية ـ العربية، بقدر ما تنطبق على طرابلس.

ب ـ أنماط السكن:

نقطة الانطلاق في المسكن الإسلامي هي الباحة الداخلية التي تصطف حولها الغرف. فقد يكون المسكن غرفة حيث تعيش عائلة أو مركباً من عدة مساكن، أو مساكن من باحتين.

وفي طرابلس كانت أكثرية المساكن تقوم فوق القناطر والأقبية والعقود[١٩٥].

١ ـ الطوابق:

غالبية مساكن طرابلس كانت من أكثر من طابق واحد. وأول دليل على ذلك أن العمري والنويري يذكران أن المياه كانت تصل إلى الطوابق العليا من المدينة[١٩٦]، مما يشير إلى أن المساكن كانت من أكثر من طابق واحد. كما أن الخانات كانت من طابقين: الأسفل اسطبلاً ودكاناً لعرض البضائع والعلوي حجرات نوم.

وفي نص وقفية طينال وصف لمحتويات الوقف ولوجود طوابق تعلو الحوانيت[١٩٧].

٢ ـ أسس البناء وحجارته:

لا نعرف شيئاً مهماً عن تقنية البناء، ولا كيف كانت أساساته. وكان العمار من حجر كما يؤكد ذلك العمري، الذي يذكر أن جميع أبنية طرابلس كانت بالحجر والكلس، مبيضاً ظاهراً وباطناً[١٩٨].

وقد استخدم المماليك الحجارة المنحوتة والحجارة الرملية، من بقايا المدينة الصليبية لبناء المدينة الحديثة. فاستعملت الأعمدة الصليبية والرومانية القديمة كدعامات. ونجد هذه العواميد في الجوامع (طينال والطحام) والمدارس (الحجيجية) والأعمدة الغرانيتية في الجامع المنصوري، والطحّام والمدرسة القرطاوية إلخ[١٩٩]، وكانت المنازل المبنية بالحجارة الرملية الثقيلة والجدران الضخمة تقوم فوق الأبنية والعقود[٢٠٠].

وإذا كان الرخام في مباني الشام، أقلّ منه في دور مصر، وإن يكن أحسن نوعاً[٢٠١] فهذا الشيء، ينطبق أيضاً على طرابلس، كما سنرى في الصفحة اللاحقة.

الأقبية كانت تقوم في أسفل المنازل كما هي ظاهرة للعيان حتى اليوم، ولا نعرف شيئاً عن العمار من حجارة اللبن.

٣ ـ الباحة الداخلية والدرج:

كل المنازل مبنية تقريباً حول باحة، قد تتشعب في المدن الإسلامية إلى باحة خارجية وباحة داخلية. والباحة الداخلية نادراً ما يوجد فيها حديقة، وقد نجد داخلها بئراً.

أما بالنسبة للدرج، فالعمري يشير إلى أنه كان يرقى إلى البيوت بالدرج العالية[٢٠٢].

٤ ـ التقسيم الداخلي للمسكن:

لا نعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وما تبقى من مساكن لا يمكن الركون إليه لمعرفة التنظيم الداخلي من حيث الغرف والإيوانات، بسبب تغيّر وضعية المنزل مع الوضعية الإجتماعية وبسبب الإرث، علماً أنه لم يكن للمطبخ غرفة قائمة بحدّ ذاتها، كما أن قليلاً من المنازل كان فيها اسطبل.

٥ ـ أشكال السكن:

أشاد بدر الدين الحلبي (من منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) بمساكن طرابلس الأنيقة[٢٠٣].

وهذه المساكن على أنواع حسب الوظيفة الإجتماعية لساكنيها. ولكن هذه الوضعية قد تتغيّر مع توزع الإرث الذي يجبر العائلات على تقسيم المنازل، وبالتالي يصبح المسكن الكبير عبارة عن تجميع لعدة مساكن متواضعة.

ويفترض أن يكون الفرق بين منازل الأغنياء والفقراء كبيراً جداً. ولكننا لا نعرف شيئاً عن سكن الأغنياء والبورجوازية والفقراء.

٦ ـ مسائل سكنية لا جواب عليها:

ولتوضيح مسألة السكن، لا بدّ عادة من الإجابة على عدة أسئلة، حول ملكياتها، وتقسيمها وإجاراتها، وأسعارها والضرائب عليها. ولكن حتى اليوم، لا جواب على هذه المسائل بانتظار إيجاد وثائق جديدة حول الموضوع.

ج ـ هندسة البناء في مدينة طرابلس:

وما نعرفه عن هندسة البناء، أن المدرسة التدمرية كانت مربعة الشكل، وبأن الخانات كانت مربعة البناء تقريباً. فخان المصريين مربع وفي وسطه باحة فيها بركة ماء مربعة. وخان الخياطين من طابقين، الأول مستودع ومحلات والعلوى الثاني من غرف متجاورة.

أما بالنسبة للحمامات، فنجد نص وقفية من العام ١٠٢٩ هـ/ ١٦١٩ م، تتكلم على إعادة ترميم حمام النوري الذي بني على عهد المماليك، فتقول الآتي:

يشتمل على داخل، وقفاً ومنافع شرعية، يدخل إليه من الباب الكبير إلى فسحة مبلطة بالرخام فيها ثلاثة أواوين، ومقصورة وخزاين، ووسطاني إيوان فيه بركة من الرخام يجري إليها الماء البارد، وخارجة مَنْ جَهْ، وفيه فسحة لطيفة وبركة كبيرة يجري إليها الماء من قناة طرابلس الكبيرة، وأقميم، ومرتفق، ومنافع، ومرافق إلخ...[٢٠٤].

د ـ البناء في الريف:

وإذا كانت معلوماتنا عن طرابلس فقيرة في حقل البناء، فهي تزداد فقراً إذا ما أمعنا النظر في أرياف نيابتها.

ولكن يلاحظ الدكتور عبد النور، أن مساكن الريف، في العهد العثماني، المجاورة لدمشق، لا تختلف كثيراً عن مساكن المدينة إلا في عدد الغرف لا في التصميم العام، فالسكن الريفي والمدني لهما وحدة النموذج والشكل[٢٠٥].

هـ ـ البناؤون:

لا نعرف شيئاً عن البنائين، أما مهندسو البناء فنعرف بعض أسمائهم من النصوص المنقوشة على المباني في طرابلس.

ونعتقد بأن معلمي البناء بتمرّسهم وخبرتهم يتبعون نموذجاً للبناء يتكرر، ولا يزال يتكرر لسنوات خلت، تبعاً لتقنية متوارثة.

و ـ مواد البناء:

ولما كان لبنان وسوريا الساحلية غنيين بمواد البناء، خاصة الحجر الكلسي والرملي، فقد اعتمد ذلك في البناء.

لذلك، كانت أبنية طرابلس، كلّها مبنيّة بالحجر والكلس، ومطليّة بالكلس الأبيض في الخارج والداخل[٢٠٦].

وتمرّ عملية البناء بعدة مراحل، لعلها كانت هي ذاتها في العهد المملوكي كما في العهد العثماني[٢٠٧].

سادساً: العلاقة بين الريف والمدينة

يعرّف «هانس غاوبه»[٢٠٨] المدينة الشرقية ـ الإسلامية انطلاقاً من مثالي دمشق وحلب: بأنها مكان الانتاج غير الزراعي، والتجارة ومركز تقديم الخدمات ومقر السلطة الحكومية. ولكن ليس بإمكانها أن تكون كل هذا، لو لم يكن هناك منطقة زراعية ريفية تمثّل خلفية لها. إن الريف ينتج ما لا تنتجه المدينة: المواد الغذائية ـ وسيشتري ما تنتجه المدينة. وهو يزوّد الصناعات المدنية بالمواد الأولية اللازمة ويقدّم الخيرات للتجارة، وهو يحتاج إلى خدمات المدينة، سواء كانت خدمات الكاهن، أو الحلاّق، أو الكاتب بالعدل، أو المهرّج، أو العالم ـ وهو يموّل بالضرائب التي تدفعها الإدارة المتمركزة في المدينة، ويزود بالإضافة إلى ذلك قسماً من الطبقة العليا في المدينة عبر تشابكات الملكية، برأس المال الذي توظفه هذه الطبقة في مجال اقتصاد المدينة وتستثمره وتضارب به.

إن المدينة وريفها يؤلفان وحدة لا تنفصم ولا يمكن لأحدهما أن يؤدي دوره بمعزل عن الآخر.

والعلاقات بين المدينة والريف استأثرت دائماً باهتمام المستشرقين، وكانت طليعة الدراسات حول هذا الموضوع مؤلفات «ج. فولروس» عن الفلاحين في سوريا وفي الشرق الأوسط.

«فولروس» يؤكد على التضاد بين الريفيين وسكان المدن في المشرق إلى حدّ يمكن معه القول بوجود شعبين مختلفين[٢٠٩].

وفي دراسة د. عبد النور للنظرية المذكورة أعلاه، يلاحظ بأن «فولروس» يرى المدينة جسماً غريباً عن البلاد، كما أن سكان المدن السورية غرباء إتنيّاً وعرقيا عن أهل الريف[٢١٠].

وأبعد من ذلك، يصل «فولروس» إلى نظرية تقول بعدم وجود ثقافة مشتركة

وأمة واحدة في «سوريا». لأن دين كل فرد هو وطنه. فالطوائف موزّعة في مدن مختلفة ولكنها تشعر بأنها أقرب إلى بعضها من جيرانها من دين آخر في الأحياء المجاورة[٢١١]، ولقد علمتنا الأحداث في لبنان صحة هذا الرأي إلى حدّ ما.

وبالنسبة إلى «فولروس» التضاد عنيف بين المدن وأريافها. ففي المدن عالم اجتماعي مختلف. فالفلاحون يطعمون المدينة ولا يحصلون منها بالمقابل على شيء، بل يخضعون لسلطتها السياسية، وليس لهم أية وسيلة لمقاومة استغلالها لهم والذي يسلبهم لصالح الارستقراطية المدنية[٢١٢].

ولعل في نصوص الضرائب غير الشرعية، التي نتكلم عليها في باب الضرائب، التي كانت تجبى من الأرياف في نيابة طرابلس لصالح سلطة النيابة وسلطة السلطان، خير شاهد، إلى حدّ ما، عن هذه العلاقة بين الريف والمدينة.

هذه النظرية التي تلتقي مع نظريات أخرى مشابهة، تركز على عدم وجود علاقات حميمة بين المدينة والريف في «سوريا» و«لبنان». فما مدى انطباق هذه النظرية على نيابة طرابلس المملوكية؟

في الواقع، كما ذكرنا أعلاه، كانت المدينة تَستغلّ، بواسطة السلطة الحاكمة، الريف لصالحها. ولكن ما يجب معرفته عن طرابلس، هو أنها لم تكن مدينة بكل معنى الكلمة، إذ كانت تجمع المدينة والريف في آن معاً. وأبرز دليل على ذلك وصف العمري لها: فقد كانت أرض مستنقعات حوّلت إلى بساتين يكثر فيها الناس والدواب، وهي موضع زرع وضرع تحيط بها غوطة وتحيط بالغوطة مواضع الزراعة[٢١٣].

النصوص الإدارية المملوكية لا تميّز قانونياً بين المدينة والقرية. والفوارق كثيرة بين البلدة والمزرعة ولكن العلاقات بين المدينة والبلدة والمزرعة كانت متبادلة.

أ ـ الأوقاف تربط المدينة بالريف:

بعض القرى يلعب وظائف مدنية، من حيث التقسيم إلى حارات وأحياء وأزقة، كما أنه يوجد بين المدينة والقرية وحدة مشتركة، على الصعيد الإجتماعي، هي وحدة التركيب الأساسي للمجتمع أي العائلة.

العدالة كانت محصورة في المدينة، وكذلك عمليات البيع والشراء يتم تسجيلها في المدينة.

وكان أهل الريف يؤمّون المدينة لكل نشاطات الحياة، كما أن بعضهم كان يستقرّ فيها لما تؤمّنه من خدمات.

كما أن الريف يستثمر لصالح أهل المدن، ولذلك كان كبار المسؤولين يعمدون إلى استثمار بعض أراضي الريف بواسطة الملكية الخاصة أو الإقطاع أو الوقف بنوعيه: الخيري والذرّي.

الأوقاف التي تقوم في المدينة، كانت تعتمد على الريف، لتغذّي نفسها من مردود القرى أو أجزاء منها.

ويبقى أخيراً السؤال، هل كانت العلاقات بين الريف والمدينة عدائية أم متجانسة؟

في الواقع، وجود التبادل على مختلف المستويات يقتضي وجود التجانس، ولكن هذا لا يمنع قيام علاقات متشنجة من حين إلى آخر، تفرضها طبيعة المجتمع الريفي المكوّن في بعض أجزاء نيابة طرابلس من طوائف غير متجانسة مع هوية سكان المدينة دينياً. وقد تكلّمنا على هذه العلاقات العدائية في الصراع الذي كان يقوم من حين لآخر، بين طرابلس كقاعدة للسلطنة بطابعها السنّي، مذهب الدولة الرسمي، مع الموارنة والنصيرية والإسماعيليين.

وبرغم هذا التشنج في بعض الأحيان، حُتّم على المدينة والريف وجود علاقات تبادل وتجانس، تبرز في الدرجة الأولى في ارتباط تموين المدينة بالريف المجاور لها.

هذا، وقد أوجدت الأوقاف ارتباطاً مميّزاً بين المدينة والريف، لجهة ربط العمران في المدينة بالانتاج في الأرياف، كما تبرز ذلك دراسة موضوع الأوقاف في طرابلس الوسيطة.

١ ـ الأوقاف في طرابلس في القرون الوسطى:

الوقف من المؤسسات التي لعبت دوراً أساسياً في اقتصاد ومجتمع وثقافة العالم الإسلامي، والتي كان لها الأثر البالغ في حياته العمرانية في وقت من الأوقات. وهو: «حبس العقار أو الأرض عن البيع وحصر المغلّ في يد شخص أو أشخاص على مقصد معيّن»[٢١٤]. والوقف، باب من أبواب التعاون على البرّ والتقوى، عامة، يستفيد منه الأشراف المتّصلون بالرسول، والفقهاء والصوفية والفقراء والقراء والأضرّا، والأسرى وأبناء السبيل والمرضى والمجانين. ومنه، تكفين الموتى وإصلاح أسوار الثغور وقناطر الطرقات وعمارة المساجد ومصابيحها وأجور أئمتها ومؤذنيها وقومتها ومصالح المدارس وإقامة وظائفها، وكذلك، الربط، والخوانق والمشاهد ومواطن العبادة إلخ...[٢١٥].

بحثنا، لن يكون دراسة في مؤسسة الوقف ـ وفي جوازات إنشائه وفي لزومه وعدمه وفي أنواعه، وشروطه انطلاقاً من شروط الصيغة مروراً بشروط الواقف انتهاء بالجهة الموقوف عليها، وفي أحكامه كالرجوع عنه وطريقة الانتفاع، وفي الولاية والإجارة، وغيره من شروط وواجبات وحقوق ـ بل، تعريف بما تحتويه بعض النماذج من الأوقاف من معلومات تفيدنا في توضيح ما انغلق من الحياة الإقتصادية في لبنان، في المدينة والريف، وخاصة، ما يعود منها للريف. هذه الأوقاف، الفائدة منها أنها تسدّ ثغرة كبيرة على صعيدين أساسيين:

١ ـ توضيح جوانب من فترتي أواخر القرون الوسطى ومطلع العهد العثماني، في القرن السادس عشر، اللتين لا نعرف عنهما إلا لمماً من المعلومات.

٢ ـ إمكانية الإفادة من أصول جديدة، كالأوقاف، التي هي من أجود الوثائق

التي تعطي تقارير دقيقة عما تصفه من قرى ومن منشآت وغيرها، وبالتالي فإن فائدتها تكمن في فتح أفق جديدة للتاريخ الإقتصادي العائد إلى عصور لا نعرف عنها الشيء الكثير.

كانت طرابلس، المدينة اللبنانية الوحيدة، من بين المدن اللبنانية التي أصابها نصيب من الإزدهار والنهضة بعد التدمير الذي لحق بالساحل اللبناني عند إجلاء الصليبيين على يد المماليك.

وقد اهتم المسؤولون المماليك، من سلاطين ونواب وحجاب ومشدين للدواوين وغيرهم، بإعادة بناء المدينة. لذلك، بنوا الأبراج والجوامع والمدارس والزوايا والتكايا والحمامات والأسواق والطواحين والقيساريات ومدّوا قنوات المياه، وبنوا المساكن والخانات والبيمارستانات والأتربة والبوابات والخانقاوات إلخ...[٢١٦].

يعود هذا العمران، من جهة، إلى نزعة لدى الأتراك، حكاماً وارستقراطيين، لاستعمال الوقف كوسيلة للتعبير عن السيطرة الثقافية - السياسية[٢١٧]، من جهة أخرى، إلى كون المدينة، بعكس مدن لبنان الأخرى، عاصمة لنيابة طرابلس.

ولإقامة الأماكن العمرانية المذكورة أعلاه، ورعايتها، أنشئت لها وقفيات متنوعة، منها ما كانت مباشرة داخل المدينة، ومنها ما كان في بعض قرى خارجة عنها، والغاية من ذلك، تأمين مصالحها المعيّنة داخل كتاب الوقف وعمارتها وصيانة أثاثها وتأمين حياة أرباب وظائفها وحاجة الفقراء والمساكين.

ما هي نوعية الملكية الموقوفة على هذه الأوقاف؟ إذا ما عدنا إلى نصوص وقفيات أواخر القرون الوسطى، في القرن الرابع عشر الميلادي، لوجدنا، أنها كناية عن بساتين وكروم وحوانيت وحواكير وأرض غير محددة الهوية ودور وأفران، وقرى ومزارع خارج المدينة، في أعمال تابعة لنيابة طرابلس، في مناطق كالكورة والبترون وعرقا وحصن الأكراد والزاوية، وما تشتمل.هذه القرى من مصابن ومعاصر ومطاحن وكروم.

أ - الأوقاف المنقوشة[٢١٨] في القرن الرابع عشر الميلادي:

من الوقفيات التي تذكر، والتي نجدها منقوشة على عتبات أو حيطان الجوامع والمدارس وغيرها، نقلاً عن صك الوقفية الأساسي، واختصاراً وحفظاً له من الضياع[٢١٩]، نجد ما يلي:

١ - وقفية مدرسة الخيرية حسن، وتعود إلى عهد «سيف الدين اسندمر الكرجي» نائب طرابلس في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ومطلع الرابع عشر.

٢ - وقفية جامع طينال، نائب طرابلس عدة مرات، وكان بناء الجامع خلال نيابته الثانية، التي كان بدؤها في عام ١٣٣٥ م[٢٢٠].

٣ - وقفية تربة طينال.

٤ - وقفية المدرسة السقرقية، من عام ١٣٥٦ م، بناها الحاجب «سيف الدين اتطرق» في نيابة طرابلس.

٥ - وقفية تربة المدرسة الخاتونية، من عام ١٣٧١ م، نسبة إلى الخاتون أرغون زوجة عز الدين ايدمر الأشرفي.

طبعاً ، كل الجوامع والمدارس كان لها أوقافها[٢٢١]، التي نتمنى أن يطّلع عليها الباحثون في يوم من الأيام، بطريقة أو بأخرى.

٢ - ما هي أهمية هذه الأوقاف؟

ذكرنا، قبل هذا الثبت بأسماء الوقفيات في القرن الرابع عشر، ما تشتمل عليه من نوعيات من الأراضي الموقوفة. وفي الواقع، لا نجد تقريراً يصف كل واحدة منها كما سنجد في الوقفيات اللاحقة. كما أنها لا تحدّد دائماً أجور ومرتبات العاملين فيها. فهي تذكر إذاً النوعية (بستان، حانوت، إلخ...) دون شرح تفصيلي. ومن أمكنة العقارات الموقوفة نذكر:

١ - تحديد بعض الأمكنة الموقوفة لوقفية خيرية حسن: مصبنة ومعصرة وطاحون

(١/٤ ٥) في قرية كفرقاهل، ١/٣ دير بأرض أصنون ـ مسكبة وقاعة و٢/١ طاحون وبحرة وطبقة في عردات، كرم زيتون في بطرام، وأمكنة أخرى في داخل طرابلس (في سوق اسندمر، وجوار المدرسة، وقيسارية الإفرنج)، بستان خارج طرابلس.

٢ ـ تحديد بعض العقارات الموقوفة لجامع طينال: بستانان في ظاهر طرابلس وسقيها يعرفان بـ (الحمرى وطنطاش)، حانوتان ملاصقان لباب الجامع وآخران جوار حمام اسندمر، ١/٣ خان دار الوكالة القديمة، وقرية أرزونية من عمل عرقا.

٣ ـ بالنسبة لتربة طينال، فهي محصورة ضمن المدينة: الطبقة المجاورة للقرية. القيسارية المجاورة لمسجد أرزوني، حانوتان بطرف سوق الحدّادين من الصف الغربي، الحوانيت والطباق بالعرصة القديمة (أي حوش)، ست حوانيت بسويقة القاضي والطباق (أي الغرف) الراكبة عليها، الحاكورة المجاورة للجامع من جهة القبلة، الأرض المجاورة للميدان من القبلة.

٤ ـ أما وقفية السقرقية، فتحدّد الأماكن الموقوفة لها في لبنان الحالي على الشكل الآتي: بستانان في قرية رشعين من عمل طرابلس، حوانيت أربع بالصف الشرقي من سوق الحلاويّين، الدار الملاصقة للمسجد، الأدر الثلاث المتلاصقة بخان المصريين، ٣/٤ الدار شمالي خان المهندس، فرن بكر خولد. إضافة إلى ذلك، تحدّد أجور بعض العاملين في المسجد: الإمام: ٤٠ درهماً، المؤذن: ٢٥ درهماً، القيم: ٣٠ درهماً، القارىء: ١٠ دراهم.

٥ ـ أما في وقفية المدرسة الخاتونية، فالأماكن الموقوفة هي الآتية: قيسارية الدهيشة، الحوانيت التسعة والمقعدات خارج المدرسة، أربعة حوانيت عن يمنة الداخل، خمسة اقباء ملاصقات القيسارية، ثلاثة حوانيت تجاه باب القيسارية القبلي، الحوانيت بوسط السوق الشرقي بالقرب من القيسارية.

زيادة على ذلك، هناك ثمة كلام على نوعية الخبز (من الحنطة الطيّب

الصافي)، مما يعني وجود خبز من غير الحنطة، غير طيّب وغير صاف، كان يستهلك في المدينة. كما نجد كلاماً على أجرة معلّم يعلّم الأيتام قراءة القرآن والكتابة ويتقاضى أجراً شهرياً، قدره ٣٠ درهماً.

٣َ ـ من أوقاف القرن الخامس عشر الميلادي: وقفية برج جلبان.

هذه الوقفية، لا يزال نصّها المخطوط محفوظاً في دار الكتب الظاهرية بدمشق، رقم المخطوط ٤٨٣٨ وتاريخه يعود إلى عام ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م. وقد عمد د. عمر تدمري إلى نشر المقطع الأساسي منها، ابتداء من الصفحة الثالثة من المخطوط.

الصفحة الأولى غير مقروءة، ثم كالعادة، فيها كلام على حسنات الصدقة واستشهاد بما نقل عن النبي من دعوة إلى الصدقة الجارية والعلم الذي ينفع، وكيف أن جلبان استجاب إلى ذلك. ثم، يلي ذلك، ذكر لصفات الواقف والغاية، إلى أن يصل كتاب الوقف (وهنا يبدأ النص المطبوع) إلى موضوعه الأساسي حيث يؤكد، كما في سائر الأوقاف، على كونه حبس مؤبد وصدقة من أملاك الواقف وفي حيازته وتحت تصرّفه وقد اشتراها بالابتياع الشرعي.

الغاية من الوقف: عمارة برج في ظاهر طرابلس، برأس المرج، على ساحل البحر الملح، يلعب في آن معاً دور المسجد والحصن.

الأماكن الموقوفة في لبنان الحالي هي الآتية: ١/٢ علما من أعمال طرابلس، ١/٢ كفرفو من عمل طرابلس، ١/٢ بعيزق من عمل عرقا، ١/٢ بينو من عمل عكّار. وبخلاف النصوص المنقوشة والعائدة للقرن الرابع عشر، المذكورة آنفاً، نجد في هذا الوقف وصفاً تفصيلياً للقرى الموقوفة، سنكتفي بذكر نموذج واحد منه، هو ذلك العائد لقرية علما:

«وجميع أراضي القرية المعروفة بعلما[٢٢٢] من أعمال طرابلس المحروسة، وتشتمل هذه القرية على أراضي مهمل ومعطّل، سهل ووعر اقاصي وإداني ومصايف ومشاتي وبيادر وإنادر وأشجار زيتون وكروم وتين وتوت ودمنة عامرة

برسم سكنى فلاحيها ولها شرب من بير ما معيّن بأرضها حدّه بكمالها من القبلة كرم يعرف بعيسون وقديماً بالمرار أخذا إلى وادي قران واصلاً إلى مرج المواصي من جهة الشرق ينتهي إلى أرض قرية كفرد لاقص تمامه الرحمة ووادي الريحان من الشرق أراضي قرية إرده ووادي العبارة آخذاً بمسيل إلى أرض قرية كفرنْبين ومن الشمال أرض مزرعة بصرما فاصل بينهما مشيد وحافة تنتهي إلى أرض عين حاروت ومن الغرب أرض مزرعة بتديون فاصل بينهما أرض بها بلان»[٢٢٣].

هذه القرى، المذكورة، كان مردودها يصرف على مصالح البرج وعلى احتياجاته التي يعدّدها نص الكتاب، وهي الآتية:

عمار - فرش - تنوير - سلاح (قسي، سيوف، نشاب، نبل، جلخ، مكحلة وغيرها من آلات الحرب)، جوامك أي مرتبات - نفقة الفلاحين من ثمن الأبقار والبذار.

إضافة، إلى كون هذا الوقف يعرّفنا باسم القرى الموقوفة ويضع تقريراً مفصلاً في وصف أراضيها وفي ما يحتويه البرج وفي مصاريفه المتفرقة، فهو ذو فائدة جمة في تذكيرنا بأجور بعض القيّمين على الوقفية والعاملين فيه أي في البرج. وما يمكن استخلاصه هو الآتي بالنسبة للأجر الشهري:

- الإمام المؤذن: ١٠٠ درهم فضة نصفها ٥٠،
- البواب، ويعمل فرّاشاً وموقداً للمصابيح ومنظفاً وحافظاً للآلات: ٨٠ درهماً فضة. نصفها ٤٠ + جامكية على الفرش ومرتباً لقاء إيقاد المصابيح.
- الكاتب الحاسب: ٥٠ درهماً نصفها ٢٥.
- مقدم المجاهدين: ١٢٠ درهماً نصفها ٦٠.
- البارودي، صانع البارود: ٨٠ درهماً نصفها ٤٠.
- خمسة أنفار محاربين مجاهدين: ٣٠٠ درهم نصفها ١٥٠ لكل نفر ٦٠.

- ريّس المجاهدين: ٦٠ درهماً نصفها ٣٠.
- نائب ناظر الوقف: ١٢٠ درهماً نصفها ٦٠.
- الناظر في أمر الوقف: يصرف لنفسه ما فضل من مصالح البرج وجوامك من يذكر فيه.

ولما كان الفائض على ما يبدو غزيراً، زاد جلبان، القلعة في صيدا، فجعلها وقفاً يستفيد من الفائض من برج طرابلس. ونستفيد من نص الوقف، الملحق، بالتعرّف إلى الأجور، في صيدا، التي كانت تدفع بالفضة المتعامل بها بدمشق، وهي على الوجه الآتي، مع الإشارة إلى اختلافها مع ما كان يتقاضاه بعض هؤلاء في برج طرابلس:

- امام مؤذّن: ١٠٠ درهم فضة نصفها ٥٠.
- ٧ أنفار محاربين مجاهدين: ٤٢٠ درهماً لكل نفر ٧٠.
- مقدّم المجاهدين: ١٠٠ درهم نصفها ٥٠.
- بارودي: ٦٠ درهما.
- فراش بواب: ٦٠ درهماً نصفها ٣٠.

٤َ - أهمية أوقاف القرنين الرابع عشر والخامس عشر في كتابة تاريخ لبنان:

إذا وضعنا وقف جلبان جانباً، لوجدنا أن هذه الأوقاف إلى حدّ بعيد تفتقر إلى الوصف الدقيق، وأعني بذلك الوصف الذي يحدّد بشكل مفصّل كل مشتملات الحوانيت والقيساريات والطواحين، وكل أنواع الأراضي التي تشتمل عليها القرى والمزارع التي يذكر.

ولكن، برغم ذلك، ففائدة أوقاف هذه الحقبة إنما تعود، بشكل عام، إلى ما يأتي:

١ - تحديد الأملاك من مسقّفات وقرى وبساتين والتي كانت موقوفة بأسمائها.

٢ ـ وجود وصف (في وقف جلبان) لنوعية الأراضي الموجودة في القرية، وبمعنى آخر إعطاء وصف لمجال القرية الحيوي ولنشاطاتها الإقتصادية السكانية. (مهمل، معطّل، مصايف مشاتي، سهل وعر، دمنة عامرة. . .).

٣ ـ تَحديد توزيع ومصدر مياه كل قرية (بئر، عين) فقط في وقف جلبان.

٤ ـ تحديد انتساب القرى إلى هذا العمل أو ذاك، ضمن دائرة نيابة طرابلس، وهذا أمر مهم في دراسة التاريخ الإداري، كما أن في ذلك تأكيداً على تاريخية أسمائها.

٥ ـ تحديد المزروعات (زيتون، كروم، تين، توت. . .).

٦ ـ معرفة وظيفة الأرض في القرى المجاورة، من خلال تحديد القرية الموقوفة (بلاّن، آبار، جسور عتيقة، دروب سالكة. . .).

٧ ـ التعرّف إلى آلات الحرب (نشاب، نبل، جلخ، مكحلة، قسيّ. . .).

٨ ـ وجود لصناعة البارود داخل الأبراج.

٩ ـ التعرّف إلى بعض الأجور.

١٠ ـالتعرّف إلى نوعية التغذية (خبز حنطة صافي وطيّب) أو لربما عكسه.

١١ ـالتعرّف إلى نوعية التعليم الذي يلقّن لبعض الصبية.

١٢ ـ التعرّف إلى المصطلحات الإقتصادية (نوع النقد. . .).

ب ـ الأرضية الريفية لطرابلس:

وطرابلس، كباقي المدن الإسلامية ـ العربية، تنتشر أرضيتها خارج تكتّلها المدني. وحياة السكان ملتصقة بها وكذلك تموينهم الغذائي. ولا توجد مدينة ليس لها امتداد ريفي تفرضه عليها أسواقها، وحوانيتها وموازينها وملاهيها.

وتختلف العلاقات بين المدينة وأرضيتها، من علاقات صراع أو علاقات تماسك كما ذكرنا أعلاه.

وعلى هذا الصعيد يلاحظ د. عبد النور أن العلاقات مثلاً بين دمشق وقرى الغوطة في العهد العثماني كانت متبادلة، بينما في صيدا كانت على العكس لأن المدينة كانت في حالة عداء مع جيرانها. هذا البناء الريفي الإقليمي حول المدن، القديم جداً، يوجد في كل المدن ويُشكّل الوحدة الأساسية للمجتمع في الشرق الأوسط[٢٢٤]، وازدهار المدينة مرتبط بوضعية أرضيتها. فأية أزمة زراعية تصيب الأرضية الريفية القريبة تؤثر مباشرة على مدخول أعيان المدينة وعلى النشاط الحرفي[٢٢٥].

هذه العلاقات بين المدينة وأرضيتها رسمت، إلى حدّ ما، حدود تموين المدينة، برغم أن هذه العلاقات كانت محدودة بالمسافة التي تستغرقها الطرقات التي تربط المدينة بالريف ذهاباً وإياباً، مما يحرم الفلاح أو المزارع من البقاء في المدينة. ولحلّ هذا الأمر جزئياً، كان الاعتماد على وسائل النقل الحيوانية وعلى المدن ـ المحطة، على الطريق من الريف إلى المدينة.

ج ـ تموين المدينة:

الحياة في المدينة، كما ذكرنا، تقتضي وجود مناطق منتجة زراعياً قد تكون قريبة أو بعيدة عنها، كما تقتضي وجود شبكة من الوسطاء يؤمنون نقل المواد الغذائية من المنتج إلى المستهلك.

وإذا كانت مسألة تأمين الخضار والفواكه والحمضيات وسمك البحر والطير، الذي تنتجه الأرياف المجاورة والملاصقة لطرابلس[٢٢٦] شبه محلولة إذ أن المدينة قريبة من مراكز الإنتاج، خاصة إنتاج الخضار والفواكه التي لا يمكنها الانتظار قبل الاستهلاك، فالمشكلة هي في تأمين الحبوب، خاصة القمح وهو الغذاء الرئيس لسكان حوض البحر المتوسط، وكذلك في تأمين اللحوم وإن تكن بدرجة أقل أهمية من القمح.

العلاقة بين المنتج والمستهلك مروراً بالوسطاء وبالمواسم كانت تمرّ عبر أجهزة الدولة. والدولة الإسلامية قد حلّت هذا الأمر عبر نظام الحسبة، الذي أفردنا الكلام عليه في باب الإدارة.

ويؤكد على عملية التموين الزراعي الداخلي لطرابلس، ما قاله بدر الدين الحلبي، بأن أشجار طرابلس في الصيف والشتاء مورقة، ومرعاها موافق وتفخر بجنّات نهر رشعين. كما أن إبن بطوطة يؤكد أن البساتين والأشجار تحفّ بها ويكتنفها البرّ بخيراته[٢٢٧]. وهذا ما أدى إلى وجود فائض في الإنتاج الزراعي في طرابلس بالذات، مما يجعل منها مركز إنتاج زراعي كبير، قد يكون الفائض منه قابلاً للتصريف إلى الخارج، إلى دمشق ومصر.

هذا التموين، من الريف الملاصق للمدينة أو القريب أو البعيد، كان يتطلب تجهيزات ومؤسسات تؤمن دورته من مثل البيمارستانات والخانات والطرق. ولما كانت الدولة لا ترعى هذه الشؤون البلدية، فقد وجد الحلّ منذ القرن الثالث عشر الميلادي، بإيجاد الأوقاف لرعاية كلّ أنواع المؤسسات البلدية، الخيرية أو ذات المصلحة العامة.

وقد كان للأوقاف دور كبير في إيجاد الخانات والأسواق والمدارس والجوامع وفي تأمين صيانتها، كما نستشف ذلك من نصوص الوقفيات، التي نجدها في هذه الدراسة.

كانت السلطة المركزية تتدخل في شؤون المدينة، لرفع الضرائب الجائرة (كما سنرى في باب الضرائب غير الشرعية) وفي حسن سير العمل، ولكنها تركت للأوقاف إدارة المؤسسات ذات النفع العام.

وللإجابة بشكل دقيق على مسألة التموين هذه، نتوقف عند بعض المواد التي كانت تتموّن منها المدينة، والتي نجد منها:

١ ـ التموين بالماء:

فمنذ مطلع العهد المملوكي، جرّت قنوات المياه من نهر قاديشا إلى المساكن، وكانت تصل إلى الطوابق العليا منها[٢٢٨]. وبذلك تكون طرابلس قد حلّت إلى حدّ كبير مشكلتها مع الماء، وهو ما كانت تعاني منه غالبية مدن الممالك الشامية.

ولكن كيف يتم الإشراف على توزيع المياه، وبأي جهاز كان يجري ذلك، هذا الموضوع لا جواب عليه حتى الآن.

والحق بمياه الأقنية العامة، كما هو معلوم حتى يومنا، هو حق شبيه بحق الملكية، يباع ويشرى أو يحوّل وقفاً، وتوزع الحصص إلى ما يتعارف عليه بلفظة «عدادين».

وأهم الإنشاءات في جرّ المياه، في التاريخ الإسلامي، كانت على العهد المملوكي. ويحلّل المستشرق «طومين» مسألة جرّ المياه إلى طرابلس، فيقول بأن المدينة كانت تنعم بظروف ملائمة لذلك. فهي تقع وسط سهل تشرف عليه جبال لبنان، وكانت المدينة مروية بواسطة قناة تجرّ المياه من النبع، مما سمح بوضع «طوالع» من ستة إلى عشرة أمتار تسهّل إيصال الماء إلى الطبقات العليا[٢٢٩].

ويذكر شيخ الربوة أن قناطر كانت تجرّ المياه إلى طرابلس من النبع علوّها سبعون ذراعاً وطولها مايتا ذراع[٢٣٠].

ومن المعروف أن طرابلس لا تتغذى من مياه النهر فقط، لوجود ينابيع عدة قرب المدينة وداخلها.

٢ ـ التموين بالزيت والعنب:

نرجح أن يكون انتاج الزيت في البساتين المجاورة لطرابلس، خاصة في سهل الكورة، الذي لا يزال حتى اليوم المصدر الأساسي لتأمين احتياجات المنطقة. وأما العنب، فكانت كرومه منتشرة بجوار المدينة. ويذكر العمري بأن الجبال المحيطة بطرابلس كانت «ذوات أشجار وكروم»[٢٣١].

٣ ـ الجوز واللوز وقصب السكر والبلح:

يشير العمري إلى كثرة هذه المواد في طرابلس. ولعلّ السبب في ذلك ازدهار صناعة الحلويات وصناعة السكر، كما يؤكد ذلك شيخ الربوة[٢٣٢]. وفي

مطلع العهد المملوكي، أشار ابن شداد إلى كثرة قصب السكر في أرض طرابلس[٢٣٣].

٤ ـ الكحول:

لا نعرف ما إذا كانت الكحول تدخل مدينة طرابلس أم لا. وبرغم ذلك، فقد كانت قائمة في الجبال المجاورة حيث يقطن الأرثوذكس والموارنة. وكان استهلاك الخمور سارياً في السواحل. وهذا ما استدعى صدور مراسيم سلطانية في ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م وفي ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م تبطل استهلاك الخمور وتدعو لتخريب الحانات ونفي أهلها. ويبدو أن الخمور كانت تصاحبها الفواحش[٢٣٤].

٥ ـ الثلج:

كانت تجارته مزدهرة في العهد المملوكي[٢٣٥]. ونظراً لارتفاع جبال لبنان خاصة تلك المحيطة بطرابلس، كان الثلج يدخل المدينة لترطيب حرّها حتى منتصف الصيف.

٦ ـ الأرزّ:

كان، لربما، يصل إلى طرابلس إمّا من منطقة الحولة المشهورة بزراعة الأرزّ، أو من مصر، مصدر الإنتاج الأساسي. ويعتبر الأرزّ من الكماليات. وإلى جانب الأرزّ، كانت مصر تصدّر العدس والفول[٢٣٦].

٧ ـ اللحوم:

التقليد الشائع هو أن استهلاك اللحوم كان يعتمد على مرور قطعان الغنم في مواسم معينة، وعلى الطروش التي تربّى داخل المدينة وفي الأرياف المجاورة. أضف إلى ذلك أن طرابلس، كانت كما يذكر ابن فضل الله العمري موضع... ضرع، كما سنرى في باب الخضار.

في العهد العثماني، كان غنم القبائل التركمانية يأتي من الأناضول إلى المدن السورية ومنها يجري توزيعه في لبنان[٢٣٧].

وكان اللحامون يشكّلون تقليدياً، طائفة حرفية تلعب دوراً أساسياً في الاضطرابات في المدينة، خاصة بسبب علاقاتهم الإقليمية خارج المدينة. وغالبية هؤلاء من المسلمين[٢٣٨]، طبعاً بسبب موجب الذبح على الطريقة الإسلامية.

٨ ـ الملح:

حتى الآن، لا تزال الشواطىء القريبة من طرابلس نقطة غنية باستخراج الأملاح من الشاطىء اللبناني. وملح طرابلس، كان لا يستهلك فقط في المدينة، إذ أن جزءاً منه كان يرسل للاستهلاك خارجها، كما تؤكد ذلك وثائق مطلع القرن السادس عشر الميلادي[٢٣٩].

٩ ـ الخضار والفواكه:

بساتين طرابلس والمناطق المجاورة هي مصدر تموين المدينة بالخضار والفواكه. وابن فضل الله العمري، كما ذكرنا ذلك سابقاً، واضح في هذا المجال عندما يذكر أن البساتين تكثر في طرابلس. وهي موضع زرع وضرع وتحيط بها غوطة، ويحيط بالغوطة موضع زراعتها.

وقد اشتهرت طرابلس، التي عرفت بالفيحاء، بسبب بساتين الليمون، بإنتاج ماء الورد وبحامضها[٢٤٠]، وهما صنفان يدخلان في صناعة الحلويات، والصنف الأخير في أطباق الطعام.

كما أن إنتاج بعلبك، من الثمار المجففة وشرانق الحرير، كان يدخل طرابلس[٢٤١].

١٠ ـ السكر:

وكان ينتج في السواحل اللبنانية من زراعة قصب السكر، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

١١ ـ الخشب والفحم:

من المعروف أن الجبال المحيطة بطرابلس، كانت غنية بالأخشاب، وحرفة

صناعة الفحم الخشبي، من الحرف التقليدية عند سكان الجبال اللبنانية. وبالتالي نرجح أن طرابلس كانت تعتمد على إنتاج الجبال اللبنانية والسورية لتأمين حاجتها من الفحم الذي يستعمل في التدفئة وفي الطبخ، إلخ...

١٢ ـ القمح:

بصورة تقليدية، كان سهل البقاع وحوران وسهول سورية الداخلية خزاناً للحبوب المستهلكة في طرابلس التي لا تبعد عن حماه أكثر من ١٢٠ كلم، ومعبر حمص هو أسهل المعابر من الشاطىء اللبناني ـ السوري إلى الداخل السوري.

كان القمح ولا يزال مادة الغذاء الرئيسة، كما كان مادة للمضاربة والاحتكار، ويتحكّم سعره بحياة المواطن.

وكان المواطنون على نوعين: الميسورون من جهة والمتوسطو الحال والعائلات الفقيرة من جهة أخرى. النوع الأول كان يسعى، كما هي العادة، لتأمين حاجته من القمح وغيره، عند حلول الموسم، والنوع الثاني يحاول السعي إلى ذلك ولكنه يعيش يومه بيومه.

في العهد العثماني، كانت الحبوب تشرى وتوضع في خانات خاصة، حيث يصار إلى مدّ السوق بالتدريج بما يلزمه منها. وعادة كان الذين يخزنون الحبوب يعملون للسيطرة على السوق وإلى استثمار المطاحن للتحكم بالأسعار في كل الاتجاهات. وفي بعض المدن السورية كانت غالبية الناس تتموّن بالقمح، وفي بعض المدن كان ثلث الناس يشترون الخبز، وهذه النسب تختلف حسب الظروف الإقتصادية. وكان فريق من السكان يشترون الخبز في مرحلة من السنة، أما ما تبقى منها فيستهلكون ما خزّنوه في بيوتهم[٢٤٢].

ونقدّر أن يكون الخبز الذي يباع في الأسواق، في عهد المماليك، هو نفسه في العهد العثماني. وهذا الخبز هو: الخبز الأبيض «الكماج» ثم التنوري ثم الطابوني[٢٤٣]، وقد لوحظ أن أكثر الخبازين كانوا من النصارى[٢٤٤].

١٣ ـ سوق القمح:

في العهد العثماني، وفي القرن السادس عشر الميلادي، كانت المدينة تشهد أسواقاً للقمح حيث يأتي الشراة لتأمين حاجاتهم ودفع مكس للدولة[٢٤٥]، ولعل هذه العادة متوارثة عن العهد المملوكي وما سبقه. وعندما كانت سوريا تعاني من نقص في الحبوب، كان القمح يصلها من مصر عبر طرابلس وبيروت[٢٤٦].

١٤ ـ المطاحن والمخابز:

كانت متوفرة بكثرة على نهر أبي علي ورشعين وغيرها، كما تشير إلى ذلك نصوص أوقاف العهد المملوكي ومطلع العهد العثماني.

وقد أتت نصوص الأوقاف هذه على ذكر بعض الأفران التي كانت قائمة في طرابلس.

١٥ ـ التيارات النقدية:

وتتميز المدن عادة، بتيار نقدي قوى، يتمركز في المدينة قبل أن يتحوّل إلى مراكز أخرى. وإذا كنا لا نعرف المدّ النقدي، في المدن العربية، فلا مجال للشك بأن التجمعات المدنية سواء كانت بحجم مدينة أو بلدة كانت تجمع مبالغ نقدية لا بأس بها. ولكن ما مقدار وحجم التبادل؟ هذا ما لا نعرف عنه شيئاً.

١٦ ـ مؤسسات التموين:

كان لكل صنف من المواد الغذائية، حسب درجة احتماله للتخزين، شبكة تجارية خاصة، تعتمد على الوسطاء. وكما قلنا أعلاه، كان الأغنياء يخزّنون حاجياتهم بأسعار الموسم والفقراء يعيشون اليوم باليوم.

الخانات كانت في العهد الثعماني، ولربما في العهد المملوكي أيضاً، مراكز التخزين الأساسية. وأسماء الخانات تحمل أحياناً نوع البضاعة المخزنة كما

كانت بعض أسواق مختصة بمادة معينة. وعن الخانات تتفرّع أماكن البيع بالجملة. فكان لكل حي سويقة تؤمن الخضري والسمّان والخبّاز واللحّام[٢٤٧]. وكانت الدكاكين على نوعين: السمّانين والبقّالين وهي جميعاً تتموّن من الخانات[٢٤٨].

ولم يكن التموين في طرابلس محصوراً في إطار الأرياف المحيطة بها، والمناطق الزراعية البرية المفتوحة عليها، بل كانت تتمون من شواطئها البحرية. فالعمري يشير إلى ذلك بالقول: «وتهوي إليها وفود البحر، وترسي بها مراكبهم»[٢٤٩].

وهذه الإشارة لا تنحصر فيما كانت تُصدّره طرابلس من سلع، بل أيضاً فيما كان يدخلها من مواد بواسطة البحر، وقد يكون مصدر ذلك أوروبا، وأيضاً مصر، عبر مرفأ الرشيد، كما لَمّحنا إلى ذلك في سياق كلامنا على الأحداث السياسية.

١٧ ـ الاضطرابات في المدينة:

ذكرنا بعضا من الاضطرابات التي عصفت بمدينة طرابلس، وكانت أسبابها سياسية على قاعدة إدارية ـ اقتصادية أحياناً. ولم يرد في النصوص ذكر للاضطرابات بسبب مسائل التغذية، وهذا لا يعني عدم وجودها، إضافة إلى اضطرابات بسبب الصراعات القيسية ـ اليمنية وبين الأغنياء والفقراء. أما الصراعات الطائفية، فلم تشهدها مدن النيابات الشامية قبل القرن التاسع عشر.

سابعاً: وظيفة طرابلس المدنية

يقال بأن صفة المدينة تحدد بوظيفتها، أي بنشاطاتها الموجهة إلى العالم، لأن الخدمات المدنية الداخلية لا تعبّر عن وظيفة المدينة.

وغالباً ما تكون وظيفة تَجمّع ما، مقرونة بوظيفته وبدوره الإقتصادي، والغريب عن المدينة لا يراها إلا من خلال ما يشاهد. فالنشاطات غير الإقتصادية للوسط المدني غالباً ما تكون مجهولة[٢٥٠].

غالباً ما حاول الجغرافيون دراسة تأثير الوظيفة على تصميم المدينة. وبالنسبة للدكتور عبد النور تصميم المدينة التجارية والمدينة الداخلية العربية واحد. وحتى المدن المقدسة تلعب دوراً اقتصادياً، وبالتالي، فإن وظيفة المدينة تختلف مع الزمن ولا يمكن تعريفها بوظيفة واحدة[٢٥١]. وبالنسبة لنا، فإن التاريخ يحتم على بعض المدن وظيفة تطغى على غيرها.

فطرابلس وجدت ضمن إطار وظيفة زراعية وسط سهل خصب ومناطق زراعية، كما وجدت لغاية إدارية (مركز نيابة السلطنة) وأخذت لنفسها دوراً دفاعياً ضد الفرنجة وبوليسيا ضد الطوائف الدينية المشاغبة (موارنة ـ نصيرية ـ إسماعيلية)، ودوراً اقتصادياً تجارياً برياً وبحرياً.

فطرابلس، إلى جانب وظيفتها المدنية، هي أيضاً مركز إنتاج زراعي، وبالتالي فهي مدينة زراعية. وكلام العمري وشيخ الربوة عنها واضح في هذا الخصوص، وقد استشهدنا به عدّة مرات. وهي تعدّ في المركز الثاني للإنتاج الزراعي في بلاد الشام[٢٥٢].

هذه الخصوصية تبدو مشتركة مع باقي المدن السورية، كما تظهر ذلك الدراسات عن الفترة العثمانية[٢٥٣]. والحياة المدنية فيها لا تلغي المشاركة في الحياة الفلاحية. وبهذا الخصوص يقول شيخ الربوة: «ولا يكاد يوجد فيها دار بغير شجر لكثرة تخرق أرضها بالمياه. وقد جمعت في بساتين طرابلس من الفواكه ما لا يوجد في سائر الأقاليم...»[٢٥٤].

ومن الصعب معرفة ما تمثله التجارة الكبيرة العالمية، في الحياة الحقيقية للمدينة، وهذا النشاط لا يحتضن إلا فئة قليلة من المجتمع[٢٥٥].

وطرابلس ليست مدينة اصطناعية، فهي قابلة جداً للحياة، والمناطق المحيطة بها تكمّل بعضها البعض. فالسهل الساحلي والمناطق الجبلية وسهول عكّار تؤمن، كما ذكرنا سابقاً، تموين المدينة غذائياً وحتى صناعياً. وهي مفتوحة على الداخل السوري عبر حمص بصورة سهلة بالقياس على باقي المدن اللبنانية والسورية.

وفي اعتقاد د. عبد النور، أن اختيار موقع طرابلس على بعد ٤ إلى ٥ كلم من البحر، لم يكن فقط لحاجات دفاعية، بل تأكيداً على وظيفتها الزراعية[٢٥٦]. ويتوافق المؤرخان «غودفروا دو منبين» و«لابيدوس» على اعتبار طرابلس مدينة تجارية وزراعية، وزراعية أولاً[٢٥٧].

وكما أن طرابلس لا تحتكر التجارة والحرف وتستأثر بحيّز كبير من النشاط الزراعي، كذلك الريف، على العكس، لا يحتكر الزراعة. فبعض قرى نيابة طرابلس، خاصة بعض البلدات المارونية، كانت مشهورة بنشاطها التجاري، كالحدث مثلاً، كما أن بعض قرى الإسماعيلية، وقد ورد ذكرها في نصوص المسامحات الضرائبية، كانت تشغل نشاطاً حرفياً مهماً.

ولتنشيط الحياة الزراعية، كانت تقام أسواق أسبوعية وموسمية، وفي مناسبات الأعياد، وافتقارنا إلى نصوص عنها في العهد المملوكي، لا يعني عدم وجودها، لأنها لا تزال حتى اليوم تقليداً مهماً في بعض قرى لبنان وسوريا.

وبهذه الوظيفة الزراعية، إضافة إلى وظائف أخرى، التجارية والإدارية والدفاعية، شكلت طرابلس مع ما يجاورها نيابة، قابلة للحياة، وبعيدة عن أن تكون اصطناعية. فالمدينة، إضافة إلى ما في نيابتها من مدن صغيرة بحجم بلدات كبيرة، وقرى ومزارع ومناطق اقتصادية تكمل بعضها البعض: سهل، جبل، سهول، باقتصاديات متنوّعة تنتج الحبوب والقطن والحرير والزيت والخضار، وتشكل وحدة إدارية متناسقة، محورها مدينة طرابلس.

هوامش الفصل الرابع

(١) E. LISLE, Avant propos du Colloque de *L'espace social de la ville arabe*, Maisonneuve, 1979, pp. 1 - 6.

(٢) D. CHEVALLIER, «Les villes arabes depuis le XIX siècles; structure, vision, transformation» in Revue de *L'Académie des sciences morales et politiques*, 1972, 1er semestre, p. 119; «La ville arabe notre vision historique», in *L'Espace social*, op. cit., p. 8.

(٣) D. CHEVALLIER, Espace social, *op. cit., p. 9.*

(٤) Ibid., p. 11.

(٥) Ibid., pp. 14 - 15.

(٦) Ibid., pp. 15 - 16.

(٧) I. LAPIDUS, «Muslim cities and Islamic societies« in Middle Eastern cities, *pp. 47 - 79.*

(٨) CHEVALLIER, Villes arabes, *op. cit., p. 119.*

(٩) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 156.

(١٠) Ibid., p. 156.

(١١) نموذجا لذلك ما ورد عند الدكتور تدمري، في كتابه عن **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٥، ٢٥٣.

(١٢) الكلمة مستوحاة من إبن بطوطة الذي يصفها بـ «حديثة البناء»، **رحلة إبن بطوطة**، المصدر المذكور، ط. صادر، ص ٦٤. بينما يذكر ابن فضل الله العمري، في **مسالك الأبصار**، المرجع المذكور، أنها بنيت عوضاً عن طرابلس العتيقة، ص ١٣١. وشيخ الربوة، في **نخبة الدهر**، المرجع المذكور، يصفها بـ «المستجدة»، ص ٢٠٧.

(١٣) يذهب «سوبرنهايم» وهو أول من عني بدراسة جدّية لطرابلس، أجرى فيها مسحاً شاملاً للنقوش الموجودة فيها مع دراسة رصينة للإطار التاريخي، وأخذ عنه، لاحقاً، التدمري وغيره، إلى أن طرابلس حافظت على طابع مدينة صليبية ببناء العقد في قناطر شوارعها، وببعض جوامعها: الجامع الكبير وجامع طيلان، وهما أهم جامعين فيها، اللذان يفضحان بشكل تصميمهما، أصلهما المسيحي. انظر: SOBERNHEIM, Matériaux, *op. cit., p. 44.*

(١٤) إبن بطوطة، **رحلة**، المصدر المذكور، ص ٦٤ ـ ٦٥. وقد بالغ هذا الرحالة في وصفها فجعلها إحدى بلدان الشام الضخام، أسواقها عجيبة ومسارحها خصيبة.

(١٥) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ٩٠. المقريزي، **سلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٥١.

(١٦) SOBERNHEIM,, Matériaux, *op. cit., p. 44*.

(١٧) Ibid, *op. cit., p. 44 - 46*.

(١٨) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ١٣١ ـ ١٣٢. ويأخذ عنه القلقشندي، **صبح**، المصدر المذكور،، ج ٤، ص ١٤٣.

(١٩) شيخ الربوة، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، نشره مهرن، ليبزغ ١٩٢٣، ص ٢٠٧.

(٢٠) القلقشندي، **صبح**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٤٣.

(٢١) ابن تغري بردى، **نجوم**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣٢٢.

(٢٢) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٢٣) ايرا مارفين لابيدوس، **مدن الشام في العصر المملوكي**، ص ٤٨.

(٢٤) راجع نص نقشين يؤكدان ذلك منشورين في SOBERNHEIM, Matériaux, *op. cit., p. 48 - 45*. تدمري، **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ٥٧ ـ ١٣٤، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٥٤، ٣٣١. ولا ذكر للجامع في القلقشندي، ج٢/٤٧٢.

(٢٥) SOBERNHEIM,, Matériaux, op. cit., p. 51.

(٢٦) Y. SADER, *Peintures murales dans des églises maronites médiévales*, pp. 46 - 47, dar sader, 1987, pp. 46 - 47.

(٢٧) SOBERNHEIM, op. cit., p. 51.

(٢٨) ابن حبيب، بدر الدين الحلبي، **درة الأسلاك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ١٤٤.

(٢٩) SOBERNHEIM, op. cit.., p. 84.

(٣٠) Ibid., p. 83.

انظر حول ترجمته ابن أيبك الدواداري، **الدر الفاخر**، ج ٩، ص ١٣، ابن الفرات، **تاريخ**، ج ٨، ص ١٩٩، ابن تغري بردى، **النجوم**، ج ٨، ص ١٨٣.

(٣١) راجع نصّ النقش على ضريحه في SOBERNHEIM,, Matériaux, op. cit., p. 84. ابن حبيب، بدر الدين الحلبي، **درة الأسلاك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ١٤٤.

(٣٢) بدر الدين الحلبي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٤.

(٣٣) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٤١.

(٣٤) تدمري، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٣٥) SOBERNHEIM,, Matériaux, op. cit., p. 86, 90.

تدمري، **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ١٦٢ ـ ١٨٩، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٣٦) SOBERNHEIM, op. cit., pp. 86 - 89.

(٣٧) SADER, op. cit., p. 48.

(٣٨) SOBERNHEIM, op. cit., p. 134.

وقد تولّى طينال نيابة طرابلس من ٧٢٦ هـ إلى ٧٣٣ هـ. وتسلّم في ثاني مرة في ٧٣٥ هـ وبقي حتى ٧٤١ وثالث مرة من ٧٤٢ إلى ٧٤٣. كان صهراً للسلطان متشاوفاً على النواب. ابن أيبك الدواداري، **الدر الفاخر**، ج ٩، ص ٣٢٠، ٣٧٢. اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص ١١٤ ـ ١١٦، المؤرخ المجهول، زترستن، ص ١٧٦، ٢١٦، إبن أبي الفضائل، ص ٣٤، ٥٣، ٥٦، ٥٨، ٦٨، ٩٢. المقريزي، **السلوك**، ج ٢، ص ٢٧٢، ٢٩٢، ٣٥٧، ٦٣٧.

(٣٩) SOBERNHEIM,, Matériaux, op. cit., p. 104. أبو الفداء، **المختصر**، ج ٤، ص ١٥٣، يجعل وفاة ناصر الدين في ٧٤٩ هـ. ويذكر بناءه للجامع، كما يذكره ابن أيبك الدواداري، **الدر الفاخر**، ج ٩، ص ٣٩١.

(٤٠) ابن حجر، **الدرر**، ج ٣، ص ٢٨٦، ٢٨٧. وأيضاً: SOBERNHEIM, op. cit., p. 137. تدمري، **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ٢٠٧. **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٤١) انظر نصّ نقش انشائه في SOBERNHEIM, op. cit., p. 85. تدمري، **تاريخ وآثار**، المرجع نفسه، ص ٢٠٧ ـ ٢١٣ . **تاريخ طرابلس**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣١٧ ـ ٣٢١.

(٤٢) SOBERNHEIM,, op. cit., p. 129. ولّي أرغون نيابة طرابلس من ذي الحجة ٧٩٦ هـ إلى ٨٠٠ هـ، ابن الفرات، **تاريخ**، ج ٩، ص ٣٨٨. المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ص ٩٧٤. انظر بخصوص تاريخ ووصف الجامع، تدمري، **تاريخ وآثار**، ص ٢١٧ ـ ٢٢٩.

(٤٣) ابن أيبك الدواداري، **الدر الفاخر**، ص ٢٩١.

(٤٤) حول تولي اسندمر نيابة طرابلس، انظر: ابن أيبك الدواداري، المصدر نفسه، ص ٧، ١٣، ٣٩، ٨٠، ١٠٩، ١١٠، ١٧٥، ١٩٥. وقد ورد ذكر هذا الخان في نص نقش مصبنة قطلو. كما في نص للنويري، نشره سوبرنهايم نقلاً عن مخطوط باريس رقم ١٥٧٩، ص ٢٤: SOBERNHEIM, op. cit., pp. 45, 136. أنظر أيضاً: تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٥٦، ٢٩٠.

(٤٥) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦. وهو لا يسند رأيه في بنائها وبناء المدرسة النورية إلى مصادر.

(٤٦) تدمري، **تاريخ وآثار**، ص ٢٧٥. **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٣١٧، ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٤٧) ورد ذكرها في نقش مصبنة قطلو. SOBERNHEIM, Matériaux, p. 136 انظر أيضاً: تدمري، **تاريخ وآثار**، ص ٢٧١. **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٣١٧.

(٤٨) ورد ذكرها وذكر القاضي في: ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ١، ص ١٢١، ١٢٢. انظر حول وصفها: تدمري، تاريخ طرابلس، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣٢٦. SOBERNHEIM, op. cit., p. 61.

(٤٩) اليوسفي، **نزهة**، المصدر المذكور، ص ١١٤، حاشية ١ SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., p. 83.

(٥٠) تدمري، **تاريخ وآثار**، ص ٢٤٤ ـ ٢٦٧. **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ٣٢٩.

(٥١) SOBERNHEIM, op. cit., p. 138.

(٥٢) إبن بطوطة، **رحلة**، نسخة صادر، المصدر المذكور، ص ٦٥. النويري، نصّ منشور في سوبرنهايم نقلاً عن مخطوط باريس رقم ١٥٧٩، ص ٦٤.

(٥٣) SOBERNHEIM, op. cit., p. 45, 136.

(٥٤) تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٥٥) النويري، مذكور في المرجع نفسه، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣. إبن بطوطة، **رحلة**، ص ٦٤.

(٥٦) راجع تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٥٧) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٢٤. لا نجد عنده إسناداً إلا إلى وقفية عام ١٠٢٩ هـ.

(٥٨) إبن بطوطة، **رحلة**، ص ٦٤ ـ ٦٥. ابن كثير، ج ١٤، ص ١٦٧. ابن قاضي شهبة، **تاريخ**، م ٢، ص ٤٦٢.

(٥٩) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٦١) القلقشندي، **صبح**، ج ٤.

(٦٢) أبو الفداء، **المختصر**، ج ٤، ص ١٤١. محمد كرد علي، **خطط**، ج ٦، ص ١٦٧.

(٦٣) تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٦٤) المقريزي، **السلوك**، ج ٢، ص ٤٠. وهو يخطىء باعتباره إعادة بناء القلعة من عمل اسندمر مكان القلعة السابقة.

(٦٥) النويري، مخطوط باريس، رقم ١٥٧٩، ص ٢٤. SOBERNHEIM, op. cit., p. 45, 136.

(٦٦) هذا العدد قد ينقص أو يزيد. راجع تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٢٥٩ ـ ٢٨٠.

(٦٧) القطّار، «نماذج من الأوقاف في أواخر القرون الوسطى....». المرجع المذكور، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٦٨) تدمري، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٦٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، المصدر المذكور، ص ١٧.

(٧٠) ابن الشحنة، **الدر المنتخب**، ص ٢٦٦. أوجين روجيه، **الأرض المقدسة** (بالفرنسية)، تحقيق الياس القطّار، الكسليك، ١٩٩٢. تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٥.

(٧١) النويري، نسخة باريس، ١٥٧٩، ص ٢٤٠. SOBERNHEIM, op. cit., p. 45, 136.

(٧٢) المصدر نفسه، SOBERNHEIM, op. cit.

(٧٣) النويري، المخطوط المذكور، ص ٢٤. SOBERNHEIM, op. cit., p. 45, 136.

(٧٤) راجع ما كتب عنها في الموضع المناسب.

(٧٥) القطّار، نص وقفية الخيرية **حسن**، **نماذج**، المقال المذكور، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠. النويري، المخطوط المذكور، ص ٢٤. تدمري، **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ٢٧١. **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٧٦) SOBERNHEIM, Matériaux op. cit., p. 91 - 92.

(٧٧) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ١٣٢.

(٧٨) SOBERNHEIM, Matériaux op. cit., p. 124.

(٧٩) Ibid., pp. 122 - 123.

وبرغم أن النّص المنقوش يؤكد تأسيس المدرسة على يد الأمير تغري برمش، فإن ابن تغري بردى لا يأتي على ذكره، بل يتّهم المذكور بأنه كان «عارياً من سائر العلوم والفنون». **النجوم**، ج ١٥، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢. ولعلّ سبب ذلك خلاف بين الأمير المذكور ووالد ابن تغرى بردى، السخاوي، **الضوء**، ج ٣، ص ٣٥. وهو أيضاً، لا يشير إلى المدرسة.

(٨٠) النصّ الكتابي المنقوش عليها يشير إلى أن بانيها هو السلطان حسن بن محمد بن قلاوون. ولم يأت سوبرنهايم على ذكرها. انظر: تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٣١٧. **تاريخ وآثار**، ص ٢٧٣.

(٨١) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., pp. 109 - 111. انظر ملخّص وقفية هذه المدرسة في باب الفصل المتعلق بالأوقاف.

(٨٢) Ibid., p. 114. انظر حول ترجمة أيدمر، المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ص ١٥٧، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٤٤، ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١١، ص ١٣٤. وهما لا يأتيان على ذكر المدرسة. وحول ملخّص نصّ وقفيتها، راجع الفصل المتعلق بالأوقاف.

(٨٣) SOBERNHEIM, op. cit., p. 113 ولقد تعرّف سوبرنهايم إلى شخصية محمد السكر من خلال نصّ نقش موجود في دمياط من عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م.

(٨٤) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٨٥) DARRAG, op. cit., pp. 32, 244. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٦٦، ٢٧١.

(٨٦) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., p. 144.

(٨٧) Ibid., pp. 115 - 118.

(٨٨) لأبيدوس، المرجع المذكور، ص ٦١.

(٨٩) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., p. 123 - 124. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣٦٨. وهو يخطىء في إسناد صفحة سوبرنهايم، إذ يجعلها ١٢١ بدلاً من ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٩٠) تدمري، المرجع نفسه، ص ٢٦٦، ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٩١) المرجع نفسه، ص ٢٦٦، ٢٧٢.

(٩٢) راجع ذلك في باب الأوقاف.

(٩٣) ابن أياس، يؤكد أن البرج من عمل برسباي عندما كان نائباً على طرابلس، **بدائع الزهور**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٥٩. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٦٤، ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٩٤) DARRAG, op. cit., pp. 32, 244.

(٩٥) الصيرفي، **نزهة**، ج ٢، ص ٦٢.

(٩٦) السخاوي، م ٣، ص ١٩.

(٩٧) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣١١. **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ٢٣٠. استناداً إلى مخطوط في مكتبة المؤلف للشيخ محمد البابا.

(٩٨) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., p. 128.

(٩٩) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣١٥. تاريخ وآثار، المرجع المذكور، ص ٢٨٧.

(١٠٠) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٦٧. **تاريخ وآثار**، المرجع نفسه، ص ٣٤٠. والخانقاه: بيت للصوفية للعبادة والذكر.

(١٠١) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٩.

(١٠٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٦، ٢٧٠.

(١٠٣) ابن الحمصي، المخطوط المذكور، ص ٣٢.

(١٠٤) **القول المستظرف في رحلة الملك الأشرف**، تحقيق عمر تدمري، طرابلس، ١٩٨٤. البصروي، **تاريخ البصروي** ٨٧١ ـ ٩٠٤ هـ، ص ٨٤.

(١٠٥) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٩٩. **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ٣١٤.

(١٠٦) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٥٤. **تاريخ وآثار**، المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

(١٠٧) SOBERNHEIM, op. cit., pp. 132 - 133.

(١٠٨) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٨٣.

(١٠٩) المرجع نفسه، ص ٢٩٥.

(١١٠) راجع نص وقفية المدرسة الخاتونية العائد لعام ٧٧٣ هـ، حيث ترد لفظة «الحريريّين». SOBERNHEIM, op. cit., p. 115.

(١١١) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٨١.

(١١٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(١١٣) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., p. 125.

(١١٤) تدمري، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣٠٥. **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ٣١٩.

(١١٥) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٠٦.

(١١٦) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٠٧.

(١١٧) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣١٤.

(١١٨) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٢٧. **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ٢٨٣.

(١١٩) هندسة البناء الصليبية ترجّح أن المماليك تركوه للأرثوذكس كما فعلوا بدير البلمند.

(١٢٠) تدمري، **تاريخ وآثار**، المرجع نفسه، ص ٢٨٤.

(١٢١) المرجع نفسه، ص ٣١٣.

(١٢٢) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣٢١.

(١٢٣) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٧١.

(١٢٤) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٦٢.

(١٢٥) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٩٠.

(١٢٦) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٩٣.

(١٢٧) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٩٦.

(١٢٨) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٨٣.

(١٢٩) المرجع نفسه، ص ٣١٤.

(١٣٠) ابن قاضي شهبة، **تاريخ**، م١، ج ٣، ص ٢٢٩.

(١٣١) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., pp. 3 - 9.

(١٣٢) ابن شداد، **تاريخ**، المصدر المذكور، ص ٣٥٧. اليونيني، **ذيل**، ج ٣، ص ٢٦٠.

(١٣٣) حول التسمية العربية راجع: ابن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، المرجع المذكور، ص ٣٦. المقريزي، **السلوك**، طبعة القاهرة ١٩٣٦، ج ٢، ص ٥٩١. ولمزيد من المعلومات راجع: أحمد فائز الحمصي، **قلعة الحصن**، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٨٦.

(١٣٤) الحمصي، المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ١٨.

SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., pp.18 - 19, 21 - 24.

(١٣٥) ابن شداد، **تاريخ**، المصدر المذكور، ص ٣٥٧. اليونيني، **ذيل**، ج ٣، ص ٢٦٠.

(١٣٦) اليونيني، المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(١٣٧) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., pp. 18 - 19.

(١٣٨) Ibid., p. 19. الحمصي، **قلعة الحصن**، المرجع المذكور، ص ٢٠.

(١٣٩) راجع أيضاً اليونيني، **ذيل**، ج ٣، ص ٢٦٠ SOBERNHEIM, op. cit., pp. 18, 25, 30 - 31, 33.

(١٤٠) Ibid., pp. 18, 29 - 30.

(١٤١) اليونيني، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٢٦٠.

(١٤٢) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., p. 28.

(١٤٣) Ibid., p. 34.

(١٤٤) Ibid., p. 35.

(١٤٥) Ibid., p. 28.

(١٤٦) Ibid., p. 28.

(١٤٧) عز الدين ابن شداد، **تاريخ**، المصدر المذكور، ص ٣٥٧. راجع أيضاً اليونيني، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٢٦٠.

(١٤٨) SOBERNHEIM, Matériaux, op. cit., pp.17 - 21.

(١٤٩) ابن الجيعان، بدر الدين (٨٤٧ ـ ٩٠٢)، **القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف**، تحقيق عمر تدمري، جروس، طرابلس لبنان، ١٩٨٤، ص ٥٦ ـ ٥٧.

(١٥٠) ابن الجيعان، المصدر نفسه، ص ٥٧.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(١٥٢)إبن بطوطة، المصدر المذكور، ط. صادر، ص ٨٢.

(١٥٣) هاشم عثمان، **تاريخ اللاذقية** ٦٣٧ م ـ ١٩٤٦ م، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٦، ص ١٩٢.

(١٥٤) المرجع نفسه، ص ٤٧.

(١٥٥) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(١٥٦) المرجع نفسه، ص ٦٨.

(١٥٧) ابن أيبك، **الدر الفاخر**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٣٩١.

(١٥٨) BEAUJEU - GARNIER et G CHABOT, *Traité de géographie urbaine*, paris, 1963, pp. 28 - 35.

(١٥٩) Xavier de PLANHOL, Les Fondements géographiques de l'histoire de l'islam, paris, 1968, pp. 24 - 25; Claude CAHEN, *L'islam: des origines au début de l'Empire ottoman*, paris, 1970, p. 115.

(١٦٠) هاينس غاوبه، «المدينة الشرقية ـ الإسلامية وسكانها» في كتاب **الآثار السورية**، مجموعة أبحاث أثرية تاريخية أشرف عليها د. عفيف البهنسي، ترجمة د. نايف بللوز، فيينا ١٩٨٥ (٣٠٥ ـ ٣١٠)، ص ٣٠٥.

(١٦١) المرجع نفسه، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧.

(١٦٢) وردت اللفظة «أسوار» عند «كاترمير» وعند «دومنبين» وفي تحقيق د. أيمن سيّد.

راجع ابن فضل الله العمري، ص ١٣٢ ودومنبين، ص ١١٢. تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٢٧٦، ونص العمري، ص ٥٠٢. ويؤكد ابن شدّاد على وجود السور، راجع **الاعلاق**، ج ١، ص ١٠٤.

(١٦٣) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٧٦.

(١٦٤) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٧٧.

(١٦٥) المرجع نفسه، ص ٢٧٧.

(١٦٦) المرجع نفسه، ص ٢٧٨.

(١٦٧) تدمري، «محلات طرابلس القديمة... من خلال الوثائق العثمانية»، **في المؤتمر الأول لطرابلس إبان الحقبة العثمانية**، كلية الآداب ٣، الجامعة اللبنانية، ١٩٩٥، ص ٩٧ - ١٣١.

(١٦٨) تدمري، **تاريخ طرابلس**، ص ٢٧٩.

(١٦٩) المرجع نفسه، ص ٢٧٩.

(١٧٠) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 311.

(١٧١) هانس غاوبه، المرجع المذكور، ص ٣٠٧.

(١٧٢) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(١٧٣) غاوبه، المرجع المذكور، ص ٣٠٧.

(١٧٤) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(١٧٥) SOBERNHEIM, op. cit., pp. 87, 91, 105, 110, 115, 132.

(١٧٦) **وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس**، السجل الأول ١٠٧٧ ـ ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٦ ـ ١٦٦٧ م. تقديم د. عمر تدمري، د. فريدريك معتوق، د. خالد زيادة، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الإجتماعية ـ الفرع الثالث، طرابلس، ١٩٨٢، ص ١٢٢.

(١٧٧) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 159.

(١٧٨) Ibid., p. 160.,

(١٧٩) RAYMOND, Le Caire, *op. cit., p. 56; ABDEL - NOUR, op. cit., p. 161.*

(١٨٠) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 163.

(١٨١) Ibid., pp. 164.

(١٨٢) LAPIDUS, Muslim, *op. cit., p. 86.*

(١٨٣) W. D. HUTTEROTH et K. ABDUL FATTAH, *historical geography of palestine, transjordan and southern syria in the late 16 th century*, Erlangen, 1977, p. 53.

(١٨٤) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 171.

(١٨٥) راجع هذه المعلومات في دراستين: الأولى للدكتور عمر تدمري «محلات طرابلس القديمة، مواقعها، أسماؤها، سكّانها من خلال الوثائق العثمانية» ص ٩٧ ـ ١٣٥. والثانية للدكتور عصام خليفة «الديمغرافية التاريخية لمدينة طرابلس في القرن السادس عشر» ص ٢٢٧ ـ ٢٥٧. في المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية ١٥١٦ ـ ١٩١٨، كلية الآداب ـ الفرع الثالث ـ الجامعة اللبنانية ـ ١٩٩٥.

(١٨٦) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 165.

(١٨٧) Ibid., p. 166.

(١٨٨) ابن حبيب، بدر الدين الحلبي، **درة الأسلاك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٣٩١.

(١٨٩) غرس الدين خليل الظاهري، **زبدة**، المصدر المذكور، ص ٤٨.

(١٩٠) D. CHEVALLIER «signes de Beyrouth en 1834?», in *B. E. O*, No 25 (1973), pp. 211 - 228, p. 217.

(١٩١) ABDEL - NOUR, op. cit., pp. 208 - 209.

(١٩٢) Ibid., op. cit., p. 210.

(١٩٣) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(١٩٤) غاوبه، المرجع المذكور، ص ٣٠٧.

(١٩٥) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٧٥.

(١٩٦) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ٢٦. النويري، في سوبرنهايم، ص ٤٦.

(١٩٧) انظر النص في سوبرنهايم. SOBERNHEIM, op. cit., p. 91.

(١٩٨) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(١٩٩) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٢٠٠) المرجع نفسه، ص ٢٧٥.

(٢٠١) ابن فضل الله العمري، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٢٠٣) ابن حبيب، **درة الأسلاك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٣٩١.

(٢٠٤) تدمري ، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٢٠٥) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 128.

(٢٠٦) GAUDEFROY-DEMOMBYNES, op. cit., p111.

(٢٠٧) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 148.

(٢٠٨) هانس غاوبه، المرجع المذكور، ص ٣٠٥.

(٢٠٩) WEULERESSE, op. cit., p. 85.

(٢١٠) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 369.

(٢١١) WEULERESSE, cité par ABDEL - NOUR, op. cit., p. 369.

(٢١٢) Ibid., pp. 369 - 370.

(٢١٣) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(٢١٤) محمد كرد علي، **خطط الشام**، المرجع المذكور، ج ٥، ص ٨٩.

(٢١٥) المرجع نفسه، ص ٩٠.

(٢١٦) لمزيد من التفاصيل، راجع تدمري، **تاريخ وآثار**، المرجع المذكور، ص ٣٦ ـ ٣٨ وغيرها من الصفحات حيث تذكر نصوص الوقفيات.

(٢١٧) Claude CAHEN, *Les peuples musulamans dans l'histoire médiévale,* Institut français de Damas, Damas, 1977, p. 289.

(٢١٨) ومن يريد الاطلاع عليها فما عليه سوى مراجعة نصوصها مباشرة في المنشآت التي تحمل اسمها أو في كتاب عمر تدمري، **تاريخ وآثار**، المذكور آنفاً، ص ٣٤ ـ ٣٥، ١٧١، ١٧٢، ٢٩٥ ـ ٢٩٩، ٢٧١ ـ ٢٧٢، ٢٩١ ـ ٢٩٢ أو عند «سوبرنهايم» في سلسلة «ماكس فان برشيم»: *Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum*, op. cit., pp. 87 - 88, 91 - 92, 109 - 111, 115 - 116, Inscripitions Nos 40, 41, 49, 51, 62.

(٢١٩) يبدو أن نقش مختارات من النصوص الأصلية للوقف في الجوامع والمدارس كان أمراً شائعاً. راجع: Encycl. de l'Islam, T. IV (anc. éd.), p. 1157.

(٢٢٠) تدمري، المرجع المذكور، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢٢١) يلمّح د. تدمري إلى هذه الوقفيات التي يعود بعضها إلى الجامع المنصوري الكبير. وجامع التوبة وجامع أرغون شاه وجامع الأويسية، وتربة الأمير طرمش الكمشبغاوي ووقف الخانقاه، راجع تدمري، المرجع المذكور، ص ٤٣، ٥٧، ١٣٧، ٢٢٠، ٢٣٠، ٣٤٢، إلخ...

(٢٢٢) يضع د. تدمري مزدوجين حول اسم قرية علما مع أن لا وجود لهما في النص، وكذلك قل بالنسبة لاستعمال الفواصل ونقاط الفصل بين الجمل أو تنقيط بعض الحروف، فاقتضى ذلك منا التنبيه.

(٢٢٣) **وقف جلبان**، مخطوط رقم ٤٨٣٨، المكتبة الظاهرية بدمشق، ص ٣. ونلفت النظر بهذه المناسبة إلى كوننا قد أجرينا دراسة تحليلية مسهبة حول نوعية الأراضي في موضوع القرية اللبنانية.

(٢٢٤) ABDEL - NOUR, op. cit., pp. 260 - 261.

(٢٢٥) Ibid., p. 261.

(٢٢٦) شيخ الربوة، **نخبة الدهر**، المصدر المذكور، ص ٢٠٧.

(٢٢٧) بدر الدين ابن حبيب الحلبي، **درة الأسلاك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٣٩١. إبن بطوطة، ط. صادر، المصدر المذكور، ص ٦٤.

(٢٢٨) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(٢٢٩) اليافعي، **مرآة الجنان**، ج ٤، ص ٣٣٠. المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ص ٨٢، ٢٠٢. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج ٦، ص ١٦٤. R. THOUMIN, *Géographie humaine de la syrie centrale*, tours, 1936, p. 100.

(٢٣٠) شيخ الربوة، **نخبة الدهر**، المصدر المذكور، ص ٢٠٧.

(٢٣١) العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(٢٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٦. شيخ الربوة، المصدر المذكور، ص ٢٠٧.

(٢٣٣) ابن شداد، **الأعلاق**، المصدر المذكور، ج ١، ص ١٠٤.

(٢٣٤) ابن كثير، **البداية والنهاية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٥٠، ٨٢.

(٢٣٥) شيخ الربوة، **نخبة الدهر**، المصدر المذكور، ص ٢٠٧، ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ١٣٢.

(٢٣٦) ABDEL - NOUR, op. cit., p.219.

(٢٣٧) Ibid., p. 220.

(٢٣٨) Ibid., op. cit., p. 231.

(٢٣٩) MANTRAN, règlement, *op. cit., p. 94.*

(٢٤٠) Ibid., pp. 15 - 16.

(٢٤١) Ibid., pp. 29 - 30.

(٢٤٢) ABDEL - NOUR, op. cit., pp. 232 - 235.

(٢٤٣) Ibid., p. 235.

(٢٤٤) Ibid., pp. 238 - 239.

(٢٤٥) Ibid., pp. 235 - 236.

(٢٤٦) لابيدوس، المرجع المذكور، ص ٩٦.

(٢٤٧) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 228.

(٢٤٨) Ibid., p. 229.

(٢٤٩) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، المصدر المذكور، ص ٢٦.

(٢٥٠) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 257.

(٢٥١) Ibid., pp. 257 - 259.

(٢٥٢) GAUDEFROY DE MOMBINES, op. cit., p. 111.

(٢٥٣) Ibid., P. 266.

(٢٥٤) شيخ الربوة، **نخبة الدهر**، المصدر المذكور، ص ٢٠٧.

(٢٥٥) ABDEL - NOUR, op. cit., p. 267.

(٢٥٦) Ibid., p. 308.

(٢٥٧) GAUDEFROY DEMONBINES, La syrie, op. cit., p. 111; Lapidus, Muslim, *op. cit., p. 25.*